طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م في العصر المملوكي الأول
وآثاره في جوانب الحياة المختلفة

د. رائد عبد الرحيم مصطفى حسن
قسم اللغة العربية- كلية العلوم الإنسانية
جامعة النجاح الوطنية - نابلس- فلسطين

طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م في العصر المملوكي الأول وآثاره في جوانب الحياة المختلفة

د. رائد عبد الرحيم مصطفى حسن

قسم اللغة العربية- كلية العلوم الإنسانية

جامعة النجاح الوطنية - نابلس- فلسطين

ملخص الدراسة :

انتشرت الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول (٦٤٨هـ- ٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، وتنوّعت ما بين أمراض وزلازل وجفاف وفيضانات وغيرها، وعمّت آثارها جوانب الحياة المختلفة، وكان منها ما له أثر كبير فاق غيره في ذلك العصر، وبخاصة طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، الذي وصف بعالميته وعمومه الأرض جمعاء، ومنها بلاد المشرق العربي في مصر والشام، وقد أكثر المؤرخون من الحديث عنه، وعن الأحداث المصاحبة له، وأثرها في حياة الناس يومذاك، لكن باحثاً في العصر المملوكي الأوّل لم يفرد له دراسة علمية وافية مستقلة، فجاء الحديث عنه في ثنايا الكتب والأبحاث التي تناولت الكوارث الطبيعية والأمراض في عصر دولة المماليك البحرية. ومن هنا جاء هذا البحث ليغطي هذا النقص، وليقدّم صورة شاملة عن المرض وأثره في جوانب الحياة المختلفة .

وقد اتبع البحث المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، إذ جمع المادة العلمية من مصادرها المختلفة، ووصفها وحلّلها لتتناغم وعناوين الدراسة وأهدافها.

المقدمة:

كثرت الكوارث الطبيعية والأمراض وانتشرت في أرجاء العالم الإسلامي بخاصة والعالم بعامة إبّان حكم الدولة المملوكية الأولى، فقد تعرّضت البلاد للزلازل، والفيضانات، والجفاف، وثارت البراكين، وانتشرت الأمراض والأوبئة التي وقفت وراءها أسباب عديدة يومذاك، وقاسى الناس الشدائد والأهوال، تحدّث عنها المؤرخون في كتبهم، وخصّص بعضهم كتباً خاصّة للحديث عنها وعن أسبابها والأماكن التي انتشرت فيها، وهدف بعضها إلى حثّ الناس على الصبر وتسليم الأمور إلى الله تعالى، إذ بيّن فضل هذه الأمراض على من أصيب بها فصبر أو قضى نحبه، كما يبدو في كتاب" بذل الماعون في فضل الطاعون"، لابن حجر العسقلاني، ومثله كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، لتقي الدين المقريزي، الذي أكثر الناس في زمانه من الشكوى من كثرة المصائب التي نزلت بهم، فألف كتابه للتخفيف عنهم وليبين لهم أن ما نزل بهم وينزل من كوارث ومصائب ما هو إلا جزء من سنن الله وتدبيره، ابتلي فيها من قبلهم ، وسَرَد وقائع منذ أقدم العصور تدل على صحة ما يقول. أمّا تاج الدين السبكي، فكتب "معيد النعم ومبيد النقم"، محاولاً تفسير تلك الكوارث والنقم التي حلّت بالعباد ، فأرجعها إلى أسباب اجتماعية وسياسية في المقام الأوّل، وراح يعرضها، ويبيّن خطورتها، ويحذّر من نتائج التمادي فيها، مقدّماً الحلول المناسبة لها من منظور ديني، وحثّ الناس ورجال السياسة على الأخذ بها حتى تعود النعم وتُباد النقم. وكتب جلال الدين السيوطي كتابيه"كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة"، و"ما رواه

الواعـون في وصـف الطـاعون "، اسـتقرأ فيهمـا تـاريخ هـاتين الكـارثتين وأحداثهما.

ولعلّ من أبرز هذه الكوارث التي نزلت بالناس في العهد المملوكي الأول الأوبئة والطواعين، التي فتكت بهم، وتحدث المؤرخون عنها وعن شـدّتها وأثرهـا في جوانـب الحيـاة المختلفـة، وكـان منهـا طـاعون سـنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، الـذي شمـل بقـاع العـالم يومـذاك، ولم يستثن إلا مناطق قليلة، فأفنى وأهلك، وكانت نتائجه كبيرة ووخيمة على حياة الناس. وقد أطال المؤرخون في الحديث عنها ووصفوا فظاعتها وعنفها وفتكها. فجاء هذا البحـث ليخـتص بطـاعون هـذه الـسنة، وليـستقرئ آثـاره في جوانـب الحيـاة المختلفـة كمـا وردت في المـصادر العربيـة التاريخيـة والأدبيـة، وليـذكر أمـاكن انتـشاره وأسـبابه وأعراضـه ومـا قيـل في شـدّته، صـحيح أن هنـاك عـدداً مـن الدراسـات الـتي تناولـت الكـوارث والأمـراض في العهـد المملـوكي الأول، ولكنّها جاءت دراسات أفقية لها جميعها، ولم تقف على نتائج مرض بعينه في حقبة بعينها، ولذا جاءت نتائجها بحاجة إلى تدقيق أكثر وشمولية، وجاء بعضها مختصا بمنطقة معينة لا شاملا لها جميعها، ومن هذه الدراسات:

- بحـث " الطـاعون والجفـاف وأثرهمـا علـى البيئـة في جنـوب الـشام (الأردن وفلسطين) في العـصر المملـوكي "، ليوسـف درويـش غوانمـة[1]. تنـاول فيـه الباحـث أثـر الطـواعين المختلفـة في العـصر المملـوكي في جوانـب الحيـاة المختلفـة، وبخاصـة الاجتماعيـة والاقتـصادية، وأشـار إلى العلميـة بـصورة

(١) مجلة دراسات تاريخية، سوريا، عدد ١٣- ١٤، ١٩٨٣م، صفحات، ٧٤- ٨٧.

عابرة، ومنها طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، ولكن حديثه لم يتميّز باستقصاء المعلومة فظلّ قاصراً عن الإحاطة بتفصيلاتها.

- بحث عنوانه " الفناء الكبير والموت الأسود في القرن الرابع عشر الميلادي: دراسة مقارنة بين الشرق والغرب "، لعلي السيد علي محمود[١]، وهو بحث مفيد في الحديث عن طاعون ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، ولكنّه يركز على المصادر الغربية أكثر من العربية إذ لم يتجاوز عدد مصادره العربية تسعة مصادر، ولذا هو مهم في الحديث عن المرض في الغرب أكثر من الشرق، ثمّ إنّ بعض نتائجه الخاصة بجوانب الحياة المختلفة كانت قاصرة عن الإحاطة بها.

- رسالة ماجستير غير منشورة عنوانها " الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر ٤٩١- ٩٢٣هـ/١٠٩٧- ١٥١٧م)، لمحمد حمزة محمد صلاح[٢]، وهي دراسة مهمة في مجالها ، تناولت الكوارث الطبيعية أفقياً في عصور متعددة: الفاطمية والزنكية والأيوبية والمملوكية، وتحدّثت عن أنواع هذه الكوارث، وأسبابها ونتائجها في جوانب الحياة المختلفة: النفسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن يلاحظ إغفالها آثارها العلمية والأدبية.

- بحث " رسالة النبا عن الوبا لزين الدين بن الوردي ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م دراسة موضوعية وفنيّة "، لرائد مصطفى عبد الرحيم[٣]، تحدّث فيه الباحث عن بعض آثار طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م الأدبية، ومنها الرسالة المشار إليها في عنوان البحث، التي كتبها الأديب ابن الوردي قبل موته، إذا عاصر

---

(١) المجلة التاريخية المصرية، مصر، مجلد ٣٣، ١٩٦م، صفحات ١٤٩- ١٨٧ .

(٢) الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م . 2

(٣) مجلة جامعة النجاح الوطنية للأبحاث ، مجلد ٢٤، عدد ٥، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، صفحات ٧٤- ٨٧.

المرض، ومات فيه، وكتب فيه هذا النص الخالد، فجاء تجربة لمعاناته ومعاناة مجتمعه إبّان المرض، فتناول البحث ما ورد في هذه الرسالة من جوانب مضمونية ودرسها دراسة فنيّة.

- رسالة ماجستير غير منشورة عنوانها " أدب الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأوّل ٦٤٨هـ- ٧٨٤هـ/١٢٥٠- ١٣٨٢م)، لإسراء عبد الجبار كلش[١]، رصدت فيها الباحثة الكوارث الطبيعية في هذه الحقبة، ومنها طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، واستقرأت ما قيل فيها من أدب، ودرسته دراسة فنية وموضوعية.
- بحث عنوانه " وباء الطاعون وأثره على مدينة القاهرة في العصر المملوكي " لفتحي سالم حميدي[٢]، استعرض فيه الباحث الطواعين التي أصابت القاهرة في العصر المملوكي من سنة ٦٤٨- ٩٢٢هـ/١٢٥٠- ١٥١٦م، ووقف على بعض أسبابها ونتائجها وأثرها في جوانب الحياة المختلفة وطرق الوقاية منها، لكنّ بحثه جاء مفتقراً إلى الاستقراء، فكانت بعض نتائجه بحاجة إلى معاودة النظر فيها كقوله: إن أثر الطواعين في العهد المملوكيّ الأوّل " كانت أقلّ ممّا هي عليه في عصر المماليك الجراكسة "[٣]، وهو ما لا يقرّه واقع الحال، إذ من المعلوم أن أخطر الطواعين وأفتكها حدثت في الدولة المملوكية الأولى.

---

(١) جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠١٣م.

(٢) مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، مجلد ١٢، عدد ٤، ٢٠١٣م، صفحات ٤٥٥- ٤٧٦.

(٣) وباء الطاعون، ص ٤٥٨

- بحث " إدارة الكوارث البيولوجية في بلاد الشام في عصر الدولة المملوكية: الطاعون نموذجاً (١٢٥٠- ١٥٧١م/٦٤٨- ٩٢٢هـ "، لأشرف صالح محمد سيّد[١]، يلاحظ على عنوان البحث أن كاتبه جعل بداية العهد المملوكي في الشام في سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وهذا خطأ تاريخي إذ من المعلوم أن بداية العهد المملوكي في الشام كانت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م لا التاريخ الذي حدّده. يركز الباحث في دراسته على إدارة الدولة المملوكية للطواعين التي انتشرت في بلاد الشام، وعلى كيفية تعاملها معها، فبيّن أن الطاعون انتشر خمسين مرّة إبّان العصر في بلاد الشام، ولكنّ هدفه لم يكن حصر ورصد هذه المرات وآثارها المختلفة، وإنّما حدّده بـ "بيان حرص الدولة على مساعدة المتضررين من جراء الطاعون "، وتوصّل إلى أن الدولة نجحت في إدارة الكارثة " من خلال أربع مراحل أساسية هي: تخفيف حدّة الكارثة، والاستعداد والتحضير، والمجابهة، وإعادة التوازن "[٢].

إنّ هذه الدراسات على تنوّعها لم تقدّم نتائج شاملة عن طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، ولم تقف على المصادر التي تحدّثت عنه كلّها، ولم تستقرئ آثاره الشاملة على جوانب الحياة المختلفة، ومع ذلك يمكن الإفادة منها في البحث، وفي إنارة جوانب متعدّدة فيه.

وقد اشتمل البحث على العناوين الآتية:

- الصورة العامة للمرض، وتضمّن هذا العنوان

---

(١) مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، مركز جيل البحث العلمي، الجزائر، عدد ٦، إبريل ٢٠١٥م، صفحات ٩- ٢٣.

(٢) إدارة الكوارث البيولوجية، ص ٩.

١- وقت حدوثه وأماكن انتشاره

٢- شدّته والأسماء التي أطلقت عليه

٣- أعراض المرض وأسباب انتشاره وطرق مقاومته

- الآثار الاجتماعية للمرض
- الآثار الاقتصادية
- الآثار السياسية
- الآثار الثقافية

* * *

تناولت كتب التاريخ والتراجم والأدب طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ، وأسهبت في وصفه ، والحديث عن نتائجه ، وآثاره في جوانب الحياة المختلفة ، وكان معظم ما جاء فيها يصوّر المرض في مصر والشام وبعض المناطق في العالم التي شملها الطاعون ، ويمكن تفصيل ذلك في العناوين الآتية :

أولاً : الصورة العامة لطاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م

قدّمت المصادر صورة عامة لمرض الطاعون في سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م من جوانب مختلفة ، وتناولت التطوّرات الآتية :

أ- وقت حدوثه وأماكن انتشاره

بدأ تفشي هذا الطاعون ، حسب ما ذكرته أغلب المصادر التاريخية العربية في العالم منذ سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٠م[1] ، أي قبل سبع سنين من عموم

(١) انظر : ابن كثير الدمشقي (٧٤٧هـ- ١٣٧٣م) ، أبو الفداء إسماعيل محمد ، البداية والنهاية ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، ١٣/١٩٠- ١٩٣ ، المقريزي ، تقي الدين بن أحمد بن علي(٨٤٥هـ- ١٤٤٢م) ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، صحّحه ووضع حواشيه : محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، مصر ، ١٩٧٠م . ج٢ق٣/٧٧٢- ٧٩٣ ، ابن تغري بردي ، جمال الدين أبة المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ- ١٤٧٠م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدّمله وعلّق عليه : محمد حسين شمس الدين ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م ، ١٠/١٥٥- ١٦٨ ، السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت ٩٠٢هـ- ١٤٩٧م) ، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام ، تحقيق : بشار عواد معروف وآخرين ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م ، ص ١/٣٤- ٣٦ ، ابن شاهين الظاهري ، زين الدين عبد الباسط بن خليل الحنفي(ت٨٧٣هـ- ١٤٦٨م) ، نيل الأمل في ذيل الدول ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، ط١ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م ، ج١ق١/١٧٧- ١٨١ ، ابن دقماق ، صارم الدين بن إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي(ت ٨٠٩هـ- ١٤٠٧م) ، النفحة المسكية في الدولة التركية ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، ط١ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لينان ، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م ، ص١٦٤- ١٦٦ ، ابن إياس ، محمد بن أحمد الحنفي(٩٣٠هـ- ١٥٢٣م) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، ط١ ، دار الباز ، مكة

بلائه وسرعة انتشاره[١]، وكان ابتداؤه من المناطق الخاضعة للسيطرة المغولية في الصين، ثم انتقل إلى تبريز في إيران بعد ستة أشهر، وشمل بلاد الخطا[٢]، وبلاد الشرق جميعها: أزبَك، وإسطنبول، وقيصريّة الروم[٣]، وأنطاكية، وجبال قَرمان[٤] أو بلاد القرم، وبلاد سيس[٥]، والهند، وبغداد[٦]، ثم عمّ ما

المكرمة، السعودية، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م ج١ق١/٥٢٧- ٥٣٣ . الفناء الكبير في الرابع عشر الميلادي دراسة مقارنة بين الشرق والغرب ، ١٦٢- ١٦٣ .

(١) انظر بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٠، النفحة المسكية، ١٦٥، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة، ص٧٥ .

(٢) بكسر الخاء " جنس من الترك بلادهم متاخمة بلاد الصين " لمزيد من المعلومات انظر القلقشندي، أحمد بن علي(ت ٨٢١هـ- ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه : محمد حسين شمس الدين، ط١ ،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م ، ٤٨١/٤ .

(٣) أو قيسارية الروم مدينة كبيرة ، وهي في الأصل هيكل بناه هيرودس الأدمي تكريما لأغسطوس قيصر على نبع بانياس ، سنة ٤ ق.م، ثم وهب المدينة لاينه فيليبس، الذي أعاد بناءها فسماها قيصرية، سكنها الغساسنة، وأضحت في نهاية المطاف مع الدولة الإسلامية . انظر البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق(٧٣٩هـ- ١٣٣٨م)، مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي ، ط١ ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م، مادة " قيصرية "، منير الذيب، معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية (سورية ، الأردن)، دراسات لغوية تاريخية إحصائية جغرافية ، دار العرّاب، دار نور، دمشق، سوريا ، ٢٠١٠م، ص٩٢ .

٤ - أو كرمان " صُقع كبير بين فارس وسِجستان ومكران من بلاد الهند". لمزيد من الاطلاع انظر صبح الأعشى، ٣٤٩/٤

٥ - أو سيسيّة من الثغور الشامية العظيمة بين أنطاكية وطرطوس. انظر الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومي البغدادي(ت ٦٢٢هـ- ١٢٢٥م)، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، مادة (سيسية)

٦ - انظر ابن الوردي، زين الدين عمر بن عمر بن محمد المعري الحلبي(ت٧٤٩هـ- ١٣٤٨م)، الديوان، حقّقه وعلّق عليه وجمع ملحقه: أحمد فوزي الهيب، ط١ ، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ٨٦- ٩٠ ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، المعروف بتاريخ ابن الوردي ، تحقيق : أحمد رفعت البدراوي ، ط١ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٢٩هـ- ١٩٧٠م ، ٤٩٨/٢- ٤٩٩ ، البداية والنهاية، ٢٢٥/١٤ ، النجوم الزاهرة، ١٠-

عرف ببلاد الفرنج يومذاك (أوروبا)، وقبرص، والأندلس[1]، ووصل الوباء إلى مصر والشام أواخر سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م[2]، ثم تطوّر وزاد خطره سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، إذ أضحى عاما شاملاً، شمل مصر والشام بأسرها[3]، وعمّ البلاد من بَرقة[4] إلى الإسكندرية، والقاهرة، والمحلّة وبلبيس، وبلاد الصعيد بأسرها[5]، وحلب وماردين، وديار بكر، ودمشق، وحماة، وحمص، وصفد، والقدس، والكرك، والسواحل، وعربان البوادي، وجنين، ونابلس، والرملة، والغور، وبيسان[6]، وغزة[7]، ومكّة المكرّمة[8]، واستهجن المؤرخون دخوله إلى هذه المدينة التي مات فيها عدد من أعيانها،

١٥٦- ١٥٧، وجيز الكلام، ٣٤/١، السلوك، ج٢ ق٧٧٤/٣، وبدائع الزهور، ج١ ق٥٣٠/١.

١ - انظر البداية والنهاية، ٢٢٥/١٤، السلوك، ج٢ق٧٧٥/٣، ٧٧٦، ٧٧٧، النجوم الزاهرة، ١٥٦/١٠- ١٥٧، النفحة المسكية، ١٦٥

٢ - انظر وجيز الكلام، ٣٤/١

٣- انظر البداية والنهاية، ٢٢٥/١٤، ابن الشحنة، محب الين أبو الوليد محمد بن محمد(ت ٨٩٠هـ- ١٤٨٥م)، روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق : سيد محمد فهمي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، ص ٢٨٢، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١ق٥٢٣/١ .

٤- " اسم صُقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية". مراصد الاطّلاع ، مادة " برقة " .

٥- انظر السلوك، ج٢ق٧٧٨/٣، النجوم الزاهرة، ١٥٩/١٠ .

٦- انظر السلوك، ج٢ق٧٧٥/٣- ٧٧٦، ٧٨٥، النجوم الزاهرة، ١٥٧/١٠، ١٥٩ ، ١٦٥ .

٧- انظر البداية والنهاية، ٢٢٥/١٤، السلوك، ج٢ق٧٧٥/٣ .

٨- انظر وجيز الكلام ٣٤/١، بدائع الزهور، ج١ ق٥٣٠/١ .

وذلك لأنه لم يسبق أن دخلها الطاعون قبل ذلك[1]، ولقداستها ومكانتها الدينية في نفوسهم. وتفشّى المرض في إفريقيا وبلادها[2] .

وأضاف ابن الوردي في مقامته التي كتبها في مرض الطاعون أماكن أخرى أصابها الوباء، وهي: بلاد ما وراء النهر، وقبرص، والجزائر، وعسقلان، وعكا، وصيدا، وبيروت، والمزّة، وبعلبك، وقارة[3]، والغسولة[4]، وشمسين[5]، والجُبّة[6]، والزبداني[7]، والفوْعة[8]، وسَرمين[9]، والباب[10]، وتل باشر[11]، وذلول[12][13]

1- انظر وجيز الكلام، ٣٤/١، وبدائع الزهور، ج١ ق٥٣٠/١ .

2- انظر السلوك، ج٢ق٧٧٧/٣، النجوم الزاهرة، ١٥٩/١٠ .

3- قرية تعدّ اول طريق للقاصدين من حمص إلى دمشق، وبها عيون جارية. انظر معجم البلدان ، مادة (قارة) .

4- من قرى دمشق، وكانت محطاً للقوافل، فيها خان على بعد يوم من حمص. انظر معجم البلدان، مادة (الغسولة) .

5- " قرية تتبع اليوم ناحية الطواحين في شرق منطقة بانياس التابعة لمحافظة طرطوس ". ويكيبيديا، مادة " شمسين " .

6- "ناحية من دمشق وبعلبك "، تشمل عدة قرى، وقيل: هي من أعمال طرابلس الشام . انظر معجم البلدان ، مادة (جبّة) .

7- منطقة بين دمشق وبعلبك، ومنها خرج نهر دمشق . انظر معجم البلدان، مادة (زبداني) .

8- " قرية كبيرة من أعمال حلب". معجم البلدان، مادة (فوعة) .

9- بلدة من أعمال حلب. انظر معجم البلدان، مادة (سرمين) .

10- " ويعرف بباب بزاغة : بليدة في طرف وادي بُطنان من أعمال حلب"، وكانت عامرة بأسواقها. معجم البلدان، مادة (الباب) .

11- " قلعة حصينة وكورة في شمالي حلب"، وكانت عامرة بأسواقها وأهلها. معجم البلدان، مادة (تل) .

12- لم أعثر على تعريف لها .

13- انظر ديوان ابن الوردي، ٨٦- ٩٠، تتمة المختصر، ٤٩٨/٢- ٤٩٩ .

واستثنى المؤرخون مناطق لم يدخل إليها المرض، ومنها المدينة المنورة[١]، ومعرّة النعمان[٢]، وشيزر قرب حماة، وحارم[٣]، وأسوان في مصر[٤]، وغرناطة في الأندلس[٥]. ويذكر ابن شاهين الظاهري أنّه لم ينتشر في غزة، وحماة[٦]، وهو ما ينفيه المؤرخون الآخرون، الذين يفصّلون المأساة التي نزلت بهذين البلدين جراء المرض[٧].

ولم يقتصر حديث المؤرخين عن عمومه هذه البلاد بل أشاروا إلى أنه تنقل في بلاد العالم ١٥ سنة حتى أضحى وباء عالميّاً[٨]، و " طبّق شرق الأرض وغربها "[٩] " وعمّ الدنيا بأسرها "[١٠] .

1- انظر وجيز الكلام، ٣٤/١ .

2- انظرالسلوك، ج٢ق٧٧٥/٣، النجوم الزاهرة، ١٠ / ١٥٧، روض المناظر، ٢٨٢

3- انظر النجوم الزاهرة، ١٥٧/١٠. وحارم حصن وكورة تجاه أنطاكية، وهي من أعمال حلب، فيها أشجار كثيرة ومياه. انظر معجم البلدان، مادة " فوعة " .

4- انظر النجوم الزاهرة، ١٦٥/١٠ .

5- ابن شاهين، نيل الأمل، ١٧٧/١، السلوك، ج٢ق٧٧٧/٣، النجوم الزاهرة، ١٥٩/١٠ .

6- انظر نيل الأمل، ١٧٧/١ .

7- سيأتي الحديث عن ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله .

8- انظر السلوك، ج٢ق٧٨٧/٣، النجوم الزاهرة، ١٠ /١٦٦، وجيز الكلام، ٣٥، قاسم عبده، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٧٩م، ص١٥٥ .

9- وجيز الكلام، ٣٤/١ .

10- نيل الأمل، ١٧٧/١. وانظر ابن حبيب، بدر الدين حسن بن عمر بن الحسن(ت ٧٧٩هـ- ١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، تقديم: سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٦م، ١/٣، الحسيني، محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسين الدمشقي(ت ٧٦٥هـ- ١٣٦٤م)، من ذيول العبر للذهبي والحسيني، تحقيق: محمد رشاد عبد المطّلب، راجعه: صلاح الدين المنجد، وعبد الستار فرّاج، ط١ ،مطبعة الكويت، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، ٢٧٠/٦، السلوك، ج٢ق٧٧٨/٣، النفحة المسكية، ١٦٥، ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن محمد

وقدّم المؤرخون تواريخ دقيقة للمرض وسرعة انتشاره في الشام ومصر، فكانت أشهر ربيع الآخر، وجمادى الآخرة، ورجب وبالاً على الناس في دمشق الشام[١]، لكثرة اشتداد المرض عليهم. أمّا مصر، فاشتد فيها في أشهر رجب وشعبان ورمضان وشوال[٢]، إذ " هجم جملة واحدة، وعظم أمره جداً "[٣]، وحدّد بعض المؤرخين الناس الذين أصابهم الوباء ابتداء، ففي القاهرة مثلاً ذكروا أنّه بدأ بـ " النساء والأطفال ثم الباعة "[٤].

وفي المقابل ذكروا تواريخ تراجع المرض، إذ امتدّ إلى أواخر المحرم من سنة ٧٤٩هـ، وقيل: إنّه ارتفع في مصر في نصف ذي القعدة[٥]، وذكر آخرون أنّه في سنة ٧٥٠هـ بدأ يتقاصر في الشام، " ولكنّه لم يرتفع بالكلّية "[٦].

ثانياً: شدّته والأسماء التي أطلقت عليه:

كان هذا الطاعون شديداً، ترك آثاراً سلبية في المناطق التي وصل إليها، وقد دعت شدّته المؤرخين إلى أن يطلقوا عليه أسماء متعددة، ومنها الطاعون العام[٧]، والوباء العام[١]، والفناء الكبير[٢]، والفناء العظيم[٣]، والفصل

الدمشقي(ت ١٠٨٩هـ- ١٦٧٩م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٣١هـ- ١٩٩٢م، ٢٧١/٨.

1- انظر البداية والنهاية، ٢٢٦/١٤- ٢٢٨، السلوك، ج٢ق٣/٧٧٩.

2- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٠- ٧٨١، النجوم الزاهرة، ١٥٥/١٠، بدائع الزهور، ج١ق١/٥٢٧- ٥٢٨.

3- بدائع الزهو، ج١ق١/٥٢٧- ٥٢٨.

4- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٠، النجوم الزاهرة، ١٦١/١٠.

5- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٠، النجوم الزاهرة، ١٥٥/١٠.

6- البداية والنهاية، ٢٣٠/١٤، بدائع الزهور، ج١ق١/٥٢٨، ٥٣٠. وانظر النجوم الزاهرة، ١٦٨/١٠.

7- انظر تذكرة النبيه، ١١٠/٣، ذيول العبر، ٢٧٠/٦، وجيز الكلام، ص ٣٤، ما رواه الواعون في خبر الطاعون، ورقة ١٣.

الكبير[٤]، وسنة الفناء[٥]، والطاعون الأعظم[٦]، وأطلقوا عليه اسم طاعون الأنساب " لأنه قلّما مات به شخص إلا وتبعه أحد من أولاده وأقربائه وذوي رحمه "[٧]. وهي أسماء لا شك تدل على عالميته، وكثرة من مات فيه من البشر والحيوان.

وتتجلّى شدة المرض وعنفه في الألفاظ والعبارات التي استخدمها المؤرخون في التعبير عن آثاره السلبية في البلدان التي نزل فيها، ومنها: خلت، وفنت، وأباد، ولم يبقَ، وعمّ، واشتد، وعظم، وشمل، وكرّروا عبارات " وفشي حتى تجاوز الحدّ "[٨]، للدلالة على شدته وقوّته وعنفه.

وهذه بعض الأمثلة :

- " حتى فنيت "، " ثمّ مات الناس والوحوش والطيور حتى خلت بلاد الخطا "[٩]
- " عمّ الموت جزيرة غرناطة...."[١٠] .

1- انظر نيل الأمل ، ١٧٧/١ ، النفحة المسكية ، ١٦٤ ، شذرات الذهب ، ٢٧١/٨ ،
2- انظر روض المناظر ، ص ٢٨٢ ، ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص ١٥
3- انظر تذكرة النبيه ، ١١٠/٣ ، النجوم الزاهرة ، ١٦٦/١٠ ، بدائع الزهور ، ج١ق٥٢٣/١ ، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة ، ص٧٥ ، الفناء الكبير ،ص ١٤٩ .
4- النجوم الزاهرة ، ١٦٦/١٠ .
5- انظر النجوم الزاهرة ، ١٦٦/١٠ .
١٢- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي(ت ٧٧٩هـ- ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، علّق عليه: محمد السعيد محمد الزيني، المكتبة الوقفية، القاهرة، مصر، ص ٩٣ .
7- تذكرة النبيه ، ١١١/٣ ، انظر ديوان ابن الوردي ، ٨٦ ، تتمة المختصر ، ٤٩٨/٢ .
8- بدائع الزهور ، ج١ق٥٣١/١ .
9- السلوك ، ج٢ق٧٧٤/٣ ، النجوم الزاهرة ، ١٥٦/١٠ .
10- السلوك ، ج٢ق٧٧٧/٣ ، النجوم الزاهرة ، ١٥٩/١٠ .

- " أفنى أهل الصين " ، " وأفنى بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعربان البوادي "[1].
- " أباد العباد ، وأخرب البلاد "[2].
- وعمّ الموتان أرض إفريقية "[3].

وعبّروا عن قسوته وهوله حين بيّنوا أنّه " لم يعهد له نظير فيما مضى "[4]، ولم يسمع بمثله " فيما تقدّم من الطواعين المشهورة في صدر الإسلام "[5].

ثالثاً : أسباب انتشار المرض وأعراضه :

تحدثت كتب التاريخ عن بعض الأسباب التي كانت وراء انتشار المرض، ثم عمومه أرجاء الأرض، ومنها :

أ- العدوى[6]، فحين كان يصيب المرض أحداً كان ينتقل إلى القريبين منه وبخاصة أهل بيته، ولذلك كثر الحديث عن موت عائلات بأكملها بهذا المرض[7]، ففي القاهرة كان إذا مات شخص " يتبعه أهل داره واحداً بعد واحد حتى يفنوا جميعاً بعد ليلة أو ليلتين "[8]، وكان المرض يعدي عند تغسيل الموتى، فيروى أنّ إمرأة في القاهرة دخلت " لتغسل إمرأة فلمّا جرّدتها

1- السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٤ ، النجوم الزاهرة ، ١٥٧/١٠ .
2- النفحة المسكية ، ١٦٤ص .
3- السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٧ ، النجوم الزاهرة ، ١٥٩/١٠ . ولمزيد من الأمثلة انظر السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٨١ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، النجوم الزاهرة ، ١٦٠/١٠ ، ١٦٢ .
4- وجيز الكلام ، ٣٤/١ ، وانظر ما رواه الواعون في خبر الطاعون ، ورقة ١٣ .
5- بدائع الزهور ، ج١ ق١/٥٢٨ .
- انظر الفناء الكبير، ص ١٥٢ . 6
7- انظر البداية والنهاية، ٢٢٩/١٤- ٢٣٠ ، السلوك، ج٢ق٣/٧٧٨ .
8- النجوم الزاهرة، ١٦٢/١٠ . وانظر البداية والنهاية ، ٢٢٦/١٤ .

من ثيابها، مرّت بيدها على موضع الكُبة[1]، صاحت الغاسلة، وسقطت ميتة"[2]. وكان للحيوانات دور كبير في نقل العدوى وبخاصة الكلاب، ولذا كانت تصدر الأوامر والفرمانات بقتلها، وهو ما ذكره ابن كثير من أن نائب السلطنة بدمشق رسم بقتلها في ٢١ من جمادى الأولى من سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، وقد كانت كثيرة فيها، وشكّلت خطراً كبيراً على الناس، لما كانت تسببه من تنجيس للطرقات وقطعها[3]. وانتشرت العدوى بوساطة الرياح التي حملت فيروس المرض، وانتقلت من مكان إلى آخر، وهي التي سبّبت الموت في بلاد الفرنج والأندلس إذ " كانت ريح تمرّ عبر البحر فساعة يشمّها الإنسان سقط، ولا يزال يضرب برأسه حتى يموت "[4] ، ومثل هذه الريح هي التي عمّت دمشق حتى أصفر جوّها، وعلت الكآبة وجوه الناس" وأخذ فيهم الموت مدة شهر رجب "[5]، ومثل ذلك حدث في مصر[6]. وأسهمت الأمطار في نقل المرض في بعض المناطق، ومنها بلاد الخطا، التي كثر فيها الموت والفناء عقب مطر غزير حلّ بأرضها[7].

ب- ومن أسباب انتشار المرض عدم دفن الجثث في البلاد، وكان سبب ذلك كثرة فناء الناس، وعجزهم عن دفن موتاهم ما أدى إلى تعفنهم[8]،

1- سيأتي الحديث عنها في (أعراض المرض) .
2- السلوك ، ج٢ق٣/٧٨٣، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٤ .
3 - انظر البداية والنهاية، ٢٢٦، ١٤- ٢٢٧ .
4- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٦، النجوم الزاهرة ، ١٠/١٥٩ .
5- السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٩، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦١ .
6- انظر بدائع الزهور، ج١ق١/٥٢٣ .
7- انظرالسلوك، ج٢ق٣/٧٧٤، النجوم الزاهرة ، ١٠/١٥٦ .
- انظر الفناء الكبير، ١٥١ص . 8

ونتانة تلك البلاد و تلوّث هوائها، وزيادة انتشار المرض[1]، ولذا تكرّر الحديث عن تحلّل الجثث في المناطق المنكوبة، وانتشار الجيف الآدمية، وهو ما ذكر عن أهل الصين وتبريز والخطا إذ أضحى أكثرهم" جيفة مرميّة فوق الأرض فمّا مرّت على بلد إلا وساعة شمّها إنسان أو حيوان مات لوقته "[2]. ومثل ذلك حدث في بلاد إفريقيا[3]، وهو ما حدث في القاهرة وبعض بلادها في بلبيس والشرقيّة[4] ، ووقف سبب آخر وراء عدم دفن الموتى، وبقاء جثثهم حتى تتحلل وتنتن، وتجلّى في جشع مغسلي الموتى ومكفنيهم ودفنتهم ، الذين كانوا يطلبون مبالغ باهظة، مستغلين حاجة الناس يومذاك، وكان بعضهم وبخاصة الفقراء لا يجد ثمن الدفن وإجراءاته، فتترك جثث موتاهم ونعوشهم وقتاً طويلا، فيكون ذلك عاملا إضافيا من عوامل انتشار المرض وزيادة العدوى به[5].

ت- وأرجعه بعض المؤرخين إلى أسباب غيبية، إذ رأوا انّه عقاب من الله على ما كان يقترفه الخلق من معاص وخطايا[6]. وهذا يرد على علي السيد الذي نفى وجود هذا التفسير في المصادر التي تناولت طاعون ٧٤٩هـ[7].

1- انظر البداية والنهاية، ٢٢٨/١٤ .
2- السلوك، ج٢ق٣/٧٧٣، النجوم الزاهرة، ١٥٦/١٠ .
3- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٧، النجوم الزاهرة، ١٥٩/١٠ .
4- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٨- ٧٧٩، النجوم الزاهرة، ١٦٠/١٠ .
5- انظر البداية والنهاية، ٢٢٦/١٤ .
6- انظر ديوان ابن الوردي، ٩٢ص، رسالة النبا عن الوبا لزين الين بن الوردي، ص ١٥٠٠- ١٥٠١ .
٥- انظر الفناء الكبير، ص ١٥٢ .

وتحدثت المصادر التاريخية عن أعراض الطاعون، التي كانت تدل على الإصابة به، وتمثّلت هذه الأعراض في " البثرة واللوزة والخيارة ونفث الدم"[1]، وتفسير ذلك أنّ بعض المرضى كان يخرج خلف أذنه بثرة فيموت على إثرها " ثمّ صار يخرج للإنسان كبّة تحت إبطه فيموت أيضا سريعاً، ثمّ خرجت بالناس خيارة فقتلت خلقاً كثيراً، ثمّ صار الآدمي يبصق دماً ويموت من وقته "[2]، وقد يرافق ذلك غثيان وحرارة شديدة[3]، وكان لون الدم أحيانا أصفر، يبصقه المريض، "وغاية ما يعيش بعد ذلك خمسين ساعة رملية"[4]. ويتضح من هذه المسميات أنّ الناس شبهوا أعراض هذا المرض وما كان يخرج في جسد المريض لحظة بداية المرض وتطوره بالكبة والخيارة، وربما كان هذا الطلوع في الوجه[5]، وأحيانا بحجم حبة الفول على أصابع يد المصاب بالمرض في القاهرة[6]، وكان بعض الناس في بلاد الإفرنج من شدة المرض يضربون برؤوسهم الأرض حتى يموتوا[7]. وقد وجدت هذه الأعراض وغيرها في الحيوانات، ففي إفريقيا كانت بعض الحيوانات إذا "ذبحت وجد

1- تذكرة النبيه، ١١١/٣، وانظر ديوان ابن الوردي ، ٨٦ ، ٨٧ ، تتمة المختصر ، ٤٩٨/٢ ، السلوك ،ج٢ق٧٧٥/٣ .

2- السلوك ، ج٢ق٧٧٥/٣، النجوم الزاهرة ، ١٥٧/١٠ . وانظر ١٥٥/١٠ ، ديوان ابن الوردي ، ص٩٠ ، تتمة المختصر، ٤٩٩/٢ ، السلوك ، ج٢ق٧٨٧/٣، وجيز الكلام، ص ٣٤ .

3- انظر السلوك، ج٢ق٧٨٢/٣، النجوم الزاهرة، ١٦٢/١٠

4- تذكرة النبيه، ١١١/٣، وانظر السلوك، ج٢ق٧٧٥/٣ .

5- السلوك، ج٢ق٧٧٤/٣، النجوم الزاهرة، ١٥٧/١٠

6- النجوم الزاهرة، ١٦٤/١٠ .

7- انظر النجوم الزاهرة، ١٥٩/١٠.

لحمها منتناً قد اسودّ وتغيّر"[١]، ووجدت على رأس حيتان البطارخ في منطقة البُرُلُّس[٢] بمصر "كبّة منتنة قدر البندقة قد اسودّت"[٣]. ووجدت هذه الكبّة تحت إبط الطيور التي عثر عليها ميتة في المزروعات في القاهرة، وإبط الأسود والنمور في الغور وبيسان.[٤]، ووجد تحت إبط الإنسان والحيوان خراج أيضاً[٥]. وهذا كلّه راجع إلى أنّ ميكروبات المرض كانت تنتقل إلى الإنسان أو الحيوان عن طريق الفئران ثم البراغيث، التي بدورها تلدغ المصاب، فتتكاثر فيه الميكروبات التي تغزو الغدد الليمفاوية و"سرعان ما تتورّم وتتقيّح، مع ارتفاع في درجة الحرارة عند الشخص المصاب"، ولذا سمي هذا الطاعون بطاعون الغدد[٦]. أمّا البثرة السوداء، فسببها لدغة البرغوث[٧].

أمّا عن طرق مقاومة المرض في المدن والمناطق التي نزل بها، فيشير المؤرخون إلى طرق متعددة وطقوس دينية نهجها الناس في ذلك، مثل تطهير البلاد من بعض الحيوانات وبخاصة الكلاب لاعتقادهم أنها تنقل المرض، وعدم الطبخ في الأسواق، والصوم مدّة أيام ثلاث، والخروج في جماعات للصلاة والدعاء إلى الله كي يخفف عنهم مصابهم.[٨]، ومانزل بهم، وربما

1- السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٤، النجوم الزاهرة، ١٠/١٥٩

2- بحيرة البُرُلُّس في مصر على ساحل البحر الأبيض المتوسط من جهة الإسكندرية، وحيتنان البطارخ نوع من السمك مشهور فيها . انظر معجم البلدان، مادة " برلُّس " .

3- النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٠ .

4- السلوك ، ج٢ق٣/٧٨٤، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٥ .

5- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٥٧، النفحة المسكية، ص ١٦٤

٢- الفناء الكبير، ص ١٥٣ .

٣- انظر المرجع نفسه، ص ١٥٥ .

8 - انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٠- ٧٨١ .

أشعلوا النيران في المواقد لتنقية الهواء ممّا به من وباء[1]. ولجؤوا إلى طرق للعلاج أو الوقاية من المرض مثل أكل العدس واللحوم بعد طهي ذلك كلّه بالخلّ[2]، ويوضح ابن الوردي في رسالته عن المرض إجراءات أهل حلب في الوقاية من المرض إذا قال: " وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصّندل، وتختّموا بالياقوت، وجعلوا البصل والخل الصحنا من جملة الأدم والقوت، وأقلّوا من الأمراق والفاكهة، وقربوا إليهم الأترنج "[3].

ثانيا: الآثار الاجتماعية لمرض الطاعون

ركّز المؤرّخون على ما تركه طاعون ٧٤٩هـ من آثار في حياة الناس الاجتماعية في المناطق التي شملها ، وفي مقدّمة هذه الآثار:

- كثرة الموت والفناء الذي نزل في الناس، وخسر العالم أعدادا كبيرة من سكانه، وقد تعددت عبارات المؤرخين الدالة على ذلك، كقولهم: " وقاست الناس فيها شدائد عظيمة "[4]، و" وكان فناء عظيماً جداً "[5].وكان نهج المؤرخين في:

أ- أن أشاروا إلى عدد الموتى جراء الطاعون بصورة عامّة، دون ضبط عددهم، فتحدثوا عن عموم الموت والفناء أهل البلاد : إنسانها وحيوانها،

5- سيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً تحت عنوان (الآثار الاجتماعية للمرض)، وانظر الفناء الكبير، ١٥٩ .

6- ديوان ابن الوردي، ص ٨٦، السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٨٢، النجوم الزاهرة، ١/١٥٧، الفناء الكبير، ص ١٦٢ .

3- ديوان ابن الوردي، ص ٩١، والصحنا : نوع من الطعام يتكوّن من السمك الصغير المملح أو ما يعرف بالفسيخ، والأترنج هو المعروف بالشام باسم الخشخاش، ثمار حامضة المذاق، ذهبية اللون. انظر المصدر نفسه، ص ٩١، حاشية ٦، ٨ .

4- بدائع الزهور، ج١ق١/٥٢٣ .

5- المصدر نفسه، ج ١ ق١/٥٢٣ .

حتى إنه لم يبق فيها إلا الواحد أو النفر القليل من سكّانها، فصوروا البلاد والطرقات والمزارع والصحاري والحوانيت والخانات وغيرها في الصين ومصر والشام وإفريقيا والأندلس وقد جافت بالموتى[1]، وتعدوا ذلك إلى أن قالوا: إن المرض قد أفنى ثلثي الناس والحيوانات[2]، أو ثلثهم في مصر والشام[3]، وقضى على نحو ثلاثمائة جنس في بلاد المغول الخطا[4]، وأفنى الناس في بلاد الشرق: أزبَك واسطنبول وقيصرية الروم وجبال ابن قرَمان والأندلس وإفريقيا، وبلاد الفرنج وقبرص، وفي الصين والهند ولم يبق منهم سوى القليل.[5]، وشمل الفناء مصر ومناطقها.[6]، والشام، ومنها قطيا التي " لم يبق بها سوى الوالي وغلامين وجارية عجوز"[7]. وعمّ الفناء الرملة وصفد والقدس ونابلس والكرك وعربان البوادي، وفني أهل جنين، ولم يبق بها "غير عجوز واحدة خرجت منها فارّة ".[8].

وذكر بعض المؤرخين أن أكثر من مات في الطاعون في دمشق النساء[9]، أمّا القاهرة، فكان أغلب موتاها من النساء والباعة والشبان والفقراء[1].

1- انظر البداية والنهاية، ٢٢٨/١٤، السلوك، ج٢ق٣/٧٧٣- ٧٧٧، النجوم الزاهرة، ١٥٦/١٠، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩ .
2- انظر شذرات الذهب، ٢٧١/٨ .
3- انظر تذكرة النبيه، ١١١/٣ .
4- انظر النجوم الزاهرة، ١٥٦/١ .
5- انظر البداية والنهاية، ٢٢٥/١٤، السلوك، ج٢ق٣/٧٧٣- ٧٧٥، النجوم الزاهرة، ١٥٦/١٠، ١٥٧، ١٥٩ .
6- انظرالسلوك، ج٢ق٣/٧٧٦- ٧٨٦، النجوم الزاهرة، ١٦٠/١٠- ١٦٠ .
7- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٥، النجوم الزاهرة، ١٥٨/١٠ .
8- السلوك، ج٢ق٣/٧٧٤، النجوم الزاهرة، ١٥٧/١٠ .
9- انظر البداية والنهاية، ٢٢٦/١٤ .

حاول بعض المؤرخين ضبط عدد من ماتوا بالطاعون، وراحوا يرصدون الأعداد اليومية أوالشهرية للموتى في المناطق التي عمّها المرض، ولكنهم اعترفوا بصعوبة حصر تلك الأعداد، لكثرة الموتى أولاً وتتابعهم، ولأن كثيراً منهم لم يستطع الناس الصلاة عليهم في المساجد، من المسلمين وأهل الذمة، فظلت الأعداد الحقيقية للموتى غير دقيقة[٢]. ومع ذلك حدّدوا أرقاما معيّنة رأوها يصلّى عليها في المساجد أو سمعوا عنها، وهذا التتبع اليومي والشهري لعدد الموتى بدا جليا عند ابن كثير حين تحدّث عمّن خسرتهم دمشق وضواحيها حيث كان يقيم ويرى، وبخاصة في أشهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ورجب إذ تراوحت الأعداد اليومية المضبوطة للموتى، الذين صلي عليهم في المساجد ما بين المائة أو المائتين أو الثلاثمائة إلى الألف[٣] والألفين ومائتي إنسان[٤] ، في حين ذكر بعض المؤرخين أن أكبر عدد للموتى في دمشق في اليوم الواحد أربعمائة نفس[٥]، وقيل : وصلوا ألفي وأربعمائة ميت في اليوم الواحد[٦]، وكان يُصلّى في المسجد على الأحد عشر ميتا أو الخمسة عشر أو الأربعين وأكثر في الصلاة الواحدة[٧]. ويضاف إلى من ماتوا في دمشق بسبب الطاعون أولئك الذين قضوا من شدة التزاحم في الجنائز ودفن الموتى[٨].

1- انظر تذكرة النبيه، ١١١/١، السلوك، ج٢ق٣/٧٨٠ .
2- انظر البداية والنهاية، ٢٢٧/١٤، ٢٢٨ .
3- انظر البداية والنهاية، ٢٢٦/١٤، ٢٢٧، ٢٢٨، تذكرة النبيه، ١١١/٣ .
4- انظر النجوم الزاهرة، ١٦١/١٠ .
5- انظر ذيول العبر، ٢٧٠/٦ .
- انظر رحلة ابن بطوط ، ص ٩٣، ٥٨٦ . 6
7- انظر البداية والنهاية، ٢٢٦/١٤، ٢٢٧، ٢٢٨ .
8- انظر المصدر نفسه، ٢٢٨/١٤ .

وكثر الموت في أهل حلب حتى بلغ عدد من مات فيها يومياً خمس مائة إنسان[1]. وعانت غزّة جراء المرض حتى إن من ماتوا فيها من ثاني المحرم إلى رابع صفر حسب ما ورد في كتاب نائبها إلى مصر، زادوا على اثنين وعشرين ألفاً "وشمل الموت أهل الضياع بها ، وكان آخر زمان الحرث، فكان الرجل يوجد ميتاً خلف محراثه، ويوجد آخر قد مات وفي يده ما يبذره "[2].

وذكر المؤرخون أن بلاد سيس خلت من سكانها إثر المرض، فكان يموت في موضع منها في اليوم الواحد " مائة وثمانون نفسا "[3].

وسمع ابن بطوطة من أحد سكان غزة أن عدد من ماتوا بها في اليوم الواحد جراء الطاعون بلغ ألفا ومئة في اليوم•[4].

ويتّضح من المصادر التاريخية أن مصر والقاهرة ومدنها وضواحيها قد نالت حظّاً كبيراً من طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، ولذا تجاوز عدد من ماتوا فيها غيرها من البلاد، وكانت الأرقام التي أوردها المؤرخون كبيرة ومهولة، وموزعة على أشهر المرض وبعض أيامه، إذ كان يموت فيها بين العشرة آلاف إلى العشرين ألفاً في اليوم الواحد[5]، أو الأربع وعشرين[6]، وقيل بلغ

1- انظر تذكرة النبيه، ١١١/٣ ، النجوم الزاهرة، ١٥٧/١٠ .

2- السلوك، ج٢ق٧٧٥/٣، النجوم الزاهرة، ١٥٧/١٠- ١٥٨ ، وانظر البداية والنهاية، ٢٢٥/١٤ .

3- السلوك، ج٢ق٧٧٤/٣، النجوم الزاهرة، ١٥٦/١٠ .

- رحلة ابن بطوطة، ٥٨٦ . 4

5- ذيول العبر، ٢٧٠/٦ ، النجوم الزاهرة، ١٥٥/١٠، ١٦٣، ١٦٣، ١٦٤، وجيز الكلام، ٣٤، ما رواه الواعون، ورقة ١٣ .

- انظر رحلة ابن بطوطة، ٩٣ . 6

عددهم حتى الثلاثين ألفاً[1]، خلا من تعذّر ضبطه ممن ماتوا " في الأسواق والأحكار، وخارج باب البحر، وعلى الدكاكين في الحسينية وجامع ابن طولون، ومن يتأخر دفنه في البيوت "[2]، وبلغ عدد من ماتوا في القاهرة فقط في شهري شعبان ورمضان " تسعمائة ألف سوى من مات بالأحكار والحسينية، وباقي الخطط خارج القاهرة، وهم أضعاف ذلك "[3]. وحدّدت بعض المصادر أعداد الناس الذين كانوا يموتون يومياً في المساحة الممتدة من بَرقة الليبية إلى الإسكندرية بين المائة إلى السبعمائة إنسان[4].

إنّ هذا الأعداد الكبيرة التي فنت وماتت إبان هذا الطاعون تدل على هول المأساة، ومرارة العيش الذي ذاقه الناس يومذاك، حتى بالغ بعض المؤخين فقال: مات فيه " نصف العالم أو أكثر"[5]، ولذا من الطبيعي أن تكون له آثار اجتماعية أخرى سلبية انعكست في حياة من بقي على قيد الحياة من السكان، وتمثّلت هذه الآثار في انتشار الموتى وجيفهم في الشوارع والطرقات وتحلّلها، وما تبعه من روائح كريهة، وما نتج عنه من صعوبة في دفن الموتى لكثرتهم، ويقدّم المؤرخون وصفاً مهولاً لانتشار الجثث وكثرتها ففي مصر امتلأت مساجد بلبيس وفناءاتها وحوانيتها بالموتى، وطرحت جثثهم بجامعها، وصارت الكلاب تأكل منها[6]، واضطر الناس وإمامهم في القاهرة

1- وجيز الكلام، ٣٤ .
2- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٢، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٣.
3- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٢، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٤، وانظر بدائع الزهور، ج١ق١/٥٢٨ .
4- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٣ .
5- ما رواه الواعون، ورقة ١٣ .
6- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٩، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦١ .

في بعض الأيام إلى الصلاة خارج المسجد لامتلائه بتوابيت الموتى التي صُفّت اثنين اثنين داخله[1]. وامتلأت الطرقات في بعض الأيام بجثث الموتى حتى عجز الناس عن دفنهم[2]، ومثل ذلك حدث في دمشق وطرابلس الشام[3]، ومثل هذا الوضع جعل الناس يسعون إلى التخلص السريع من الجثث خشية انتشار المرض والعدوى به، فدفنوا موتاهم في كثير من الأحيان في قبور جماعية، وربّما رموهم في البحر كما حدث في بلاد الفرنج[4]، ويذكر أنّ أهل مصر والقاهرة كانوا يحفرون الحفائر، ويلقون فيها الموتى، " فكانت الحفيرة يُدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر "[5]، وكان بعض الناس يبيتون في الترب لعجزهم عن دفن موتاهم[6]، وكان لكثرتها في الوجه البحري في مصر " لا يوجد من يدفنها "[7].

وكان عدد الموتى أكبر من النعوش المتوفرة في المناطق المنكوبة، فكان أهل البيت الواحد في القاهرة " يموتون جميعاً وهم عشرات ، فلا يوجد لهم سوى نعش واحد يُنقلون فيه شيئاً بعد شيء "[8]، واضطر الناس إلى حمل

1- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٢، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٣ .
2- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٨- ٧٧٩، النجوم الزاهر، ١٠/١٦٢ .
3- انظر البداية والنهاية، ١٤/٢٢٧، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦١ .
4- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٦، النجوم الزاهرة، ١٠/١٥٨ .
5- السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٣، النجوم الزاهرة، ١٠/١٥٥ .
6- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٣، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٤، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٥٦ .
7- النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٠ .
8- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٣، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٤ .

أكثر الموتى على ألواح الخشب والسلالم والأبواب والجنويّات(١)، أو الأقفاص ودراريب الحوانيت(٢) " وصار يُحمل الإثنان والثلاثة في نعش واحد، وعلى لوح واحد "(٣).

وتسبّب الموت في القاهرة في خلوّ كثير من الأزقة والحارات والطرقات والشوارع من المارة لانشغال الناس بدفن موتاهم(٤)، وخلت اثنتان وأربعون داراً في حارة برجَوان(٥) من سكّانها.(٦).

ومن نتائج الموت أيضا في مصر والقاهرة انعدام الورثة، حتى صارت أمتعة الموتى لا تجد من يأخذها " وإذا ورث إنسان شيئاً انتقل في يوم واحد عنه لرابع وخامس "(٧)، حتى إن بعض الناس الأحياء راحوا يسطون على أموال الميتين ودورهم ممّن لم يبق لهم وريث، فمات بعضهم قبل أن يتمتع بها، ومن عاش منهم تمتّع بها واستغنى(٨).

1- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٥٥، ١٥٩، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٥٦ .

2- أحد مصراعي الباب .

3- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٢، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٤ .

4- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٣ .

5- نسبة إلى بَرْجوان الخادم، الذي خدم القصور الفاطمية زمن العزيز بالله الفاطمي، ودبّر أمر ابنه الحاكم بعد، وأحسن ضبط أمور الدولة ، حتى إذا كبر الحاكم سلمه برجوان أمور الحكم، فقتله الأخير سنة ٣٨٩هـ. انظرابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبد الله ابن عبد الظاهر المصري(ت ٦٩٢هـ- ١٢٩٢م)، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، حقّقه وقدّم له: أيمن فؤاد السيّد ، ط١ ، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر ، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م ، ص٦٣.

6- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٢، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٣ .

7- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٢، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٣ .

8- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٤ .

وتملّك الذعر والخوف والفزع نفوس الناس وقلوبهم في المناطق المنكوبة حتى كثر بكاؤهم وصراخهم وتضرّعم خوفاً من فتك المرض بهم، ومن كثرة الموت الذريع في الناس[1]، يذكر انه في القاهرة على سبيل المثال " تنكرت وجوه الناس، وامتلأت الأماكن بالصياح، فلا تجد بيتاً إلا وفيه صيحة[2]، ولم "يبق أحد إلا وغلب على ظنّه أنّه يموت بهذا الداء"[3].

ونتج عن ذلك كله أن هجر الناس مواطنهم، وجلوا عنها[4]، ولكنّهم لم يجدوا سوى الموت أمامهم لعموم الطاعون وانتشاره في البلاد، وهذا ما حدث في بلاد الأكراد وقبرص[5].

وكان لهذا المرض آثار اجتماعية إيجابية وفي مقدمتها التكافل الاجتماعي، وتعاون الناس في دفن الموتى، حتى اختص بعضهم بتغسيل الموتى وتكفينهم في مصر للسبيل دون أجرة[6]، وانتدب في مصر"جماعة لمواراتهم، وانقطع جماعة للصلاة عليهم"[7].

ومن آثار المرض الإيجابية عودة الناس إلى الله، والزهد في الدنيا لأنهم أدركوا أنهم قاب قوسين أو أدنى من الموت ولقاء الله جلّ وعلا، ومن هنا

1- انظر البداية والنهاية، ٢٢٦/١٤، ديوان ابن الوردي، ٨٨، تتمة المختصر، ٤٩٨/٢، النجوم الزاهرة، ١٥٧/١٠ ،
2- السلوك ، ج٢ق٧٨١/٣- ٧٨٢، النجوم الزاهرة، ١٦٣/١٠ .
3- السلوك ،ج٢ق٧٨١/٣، النجوم الزاهرة، ١٦٢/١٠ .
4- انظر النفحة المسكية، ١٦٥ .
5- انظر النجوم الزاهرة، ١٥٦/١٠، ١٥٨ .
6- انظر النجوم الزاهرة، ١٥٥/١٠ .
7- السلوك، ج٢ق٧٨١/٣، النجوم الزاهرة، ١٦٢/١٠ .

راح أهل الإسكندرية يتخلصون من الخمور، ويريقونها في الأسواق[1]، وزهد الأغنياء في المحلة في مصر بأمواله، وصاروا يوزعونها على الفقراء[2]، وأكثر أهل القاهرة من الصدقات والعبادة[3]، وقد عبّر ابن الوردي عن رجوع الناس إلى الله في مدينة حلب في أبيات شعرية، فقال[4]:

فهذا يوصي بأولاده ... وهذا يودّع جيرانه

وهذا يهيئ أشغاله ... وهذا يجهز أكفانه

وهذا يصالح أعداءه ... وهذا يلاطف إخوانه

وهذا يوسّع إنفاقه ... وهذا يخالُ من خانه

وهذا يحبّس أمواله ... وهذا يحرّر غلمانه

وهذا يغيّر أخلاقه ... وهذا يعيّر ميزانه

وتاب كثير من الناس في مصر والشام إبّان انتشار الوباء إلى الله، وأكثروا من الدعاء إلى الله والتضرّع إليه كي يكشف عنهم هذا البلاء[5]، وعكفوا على تلاوة القرآن، وقراءة صحيح البخاري مراراً، وهي عادة جرت في تلك البلاد إبّان الكوارث والنكبات والغزوات[6]، وخرجوا إلى الصحراء كاشفي

1- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٧، النجوم الزاهرة، ١٠/١٥٩ .

2- انظرالسلوك، ج٢ق٣/٧٨١، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٠ .

3- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٢ .

4- ديوان ابن الوردي، ٩٤ ، السلوك، ج٢ ق٢/٧٨٨ .

5- انظر البداية والنهاية، ١٤/٢٢٦، وجيز الكلام، ٣٥ .

6- انظر البداية والنهاية، ١٤/٢٢٥- ٢٢٦، السلوك، ج٢ق٣/٧٨١، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦١.

الرؤوس ليصلوا صلاة الاستسقاء[1]، وكثرت الخطب[2]، واعتكفوا ليالي كثيرة في المساجد، وقنتوا ودعوا في سائر الصلوات[3]، وأكثروا من الصيام، وكثرت منامات الصالحين التي رأى فيها أصحابها الرسول محمداً، صلى الله عليه وسلّم، ودعاهم إلى قراءة سورة نوح ثلاثة آلاف مرّة، "ففعل ذلك بدمشق وغيرها، وقنت بالجامع الأموي في سائر الصلوات وكذا فعل غيره من الأئمة بكثير من الأماكن، كل ذلك لرفعه"[4]، "وذبحوا أبقاراً كثيرة للفقراء مدة سبعة أيام"[5]. وكانت الدولة تتعلق بمثل هكذا منامات وإن كان بعضها يشك في صحته، مثل المنام الذي ورد من نائب حلب إلى القاهرة يتضمن منام أحد الصلحاء، رأى الرسول ، صلى الله عليه وسلّم، فأمره بالتوبة وترديد هذا الدعاء: "اللهم سكّن هيبة قهرمان الحروب بألطافك النازلة الواردة من فيضان الملكوت، حتى نتشبّث بأذيال لطفك، ونعتصم بك عن إنزال قهرك، يا ذا القوّة والعظمة الشاملة، والقدرة الكاملة، يا ذا الجلال والإكرام"، وقد كتب المنام في عدة نسخ، وبعث به إلى حماة وطرابلس ودمشق[6].

وكان هناك تكاتف كبير بين كافة الطوائف في المجتمع في ذلك، ومنهم الفقراء والأغنياء والعلماء والفقهاء ورجال السياسة والمسيحيون واليهود

1- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٦١

2- انظر بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣١ .

3- انظر البداية والنهاية، ١٤/٢٢٦ .

4- وجيز الكلام، ٣٥، وانظر البداية والنهاية، ١٤/٢٢٦، السلوك، ج٢ق٣/٧٧٩- ٧٨٠، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦١ .

5- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٠، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦١ .

6- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٠، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٢ .

والمسلمون[1]، وكانت الصلوات والدعاء فيها والصوم تقام في دمشق والقاهرة وغيرهما بقرار سياسي أو بطلب من العلماء والفقهاء والقضاة، يُذكر أنّه في يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر نودي في دمشق "أن يصوم الناس ثلاثة أيام، وأن يخرجوا في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى مسجد القدم يتضرعون إلى الله، ويسألونه في رفع الوباء عنهم، فصام أكثر الناس، ونام الناس في الجامع، وأحيوا الليل كما يفعلون في شهر رمضان، فلمّا أصبح الناس يوم الجمعة السابع والعشرين منه، خرج الناس يوم الجمعة من كل فج عميق، واليهود والنصارى والسامرة، والشيوخ والعجائز، والفقراء، والأرامل، والكبراء، والقضاة، من بعد صلاة الصبح، فما زالوا هناك يدعون الله تعالى .."[2]. ويذكر ابن بطوطة أن الذي أمر بالصوم الأيام الثلاث، ومنع الناس أن يطبخوا في السوق هو نائب السلطنة في دمشق أرغون شاه، وراح يصوّر تكاتفهم الاجتماعي يومذاك إذا وصف تجمع الناس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية وأجناسهم ودياناتهم، كلٌّ يحمل كتابه المقدس، ويتضرع إلى الله أن يخفف عن عباده ما ألمّ بهم من محنة، حتى خفّف الله عنهم، وقلّت أعداد الموتى في دمشق ثم القاهرة[3].

وكان من مظاهر العودة إلى الله تخلي كثير من الناس عن ترفهم في الملابس والمناسبات الاجتماعية المختلفة، فيذكر أنّ كثيراً من نساء مصر تركن

1- انظر رحلة ابن بطوطة، ٩٣، البداية والنهاية، ١٤/٢٢٥- ٢٢٦، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة، ص٨١، إدارة الكوارث البيولوجيّة في بلاد الشام، ص١٥ .

2- البداية والنهاية، ١٤/٢٢٦، وانظر رحلة ابن بطوطة، ٩٣ .

- انظر رحلة ابن بطوطة، ص ٩٣ . 3

لبس الحرير والذهب والفضة والجواهر، وتخلّى الناس عن إقامة الأفراح والغناء فيها مدة الطاعون[1].

وإذا ما كان ما سبق له أثر إيجابي في حياة الناس الاجتماعية والدينية، فإن المرض وكثرة الموت فيه كان له نتائج سلبية على تلك الجوانب من حياة الناس في مصر والشام، وتمثلت في تعطّل الشعائر الدينية في كثير من الأحيان لانشغال الناس بدفن موتاهم ومصيبتهم فيهم، ومثل هذا حدث في دمشق في بعض ليلة سبع وعشرين من رجب حيث اعتاد الناس الاجتماع إحياء لذكرى الإسراء والمعراج[2]. وتعطّل الأذان في بعض المساجد في بلبيس بمصر بموت المؤذنين[3]، وأغلقت في القاهرة بعض المساجد والزوايا[4].

وكثر الاستغلال المالي إبّان المرض في مصر والشام، فقد ارتفعت أجرة الذين يتولون تغسيل الموتى وتكفينهم ودفنهم في دمشق، ما أدى إلى تضرّر الناس لاسيما الصعاليك، وأدى إلى بقاء الجثث منتشرة دون دفن في الشوارع والطرقات، وكان ذلك يدفع أرباب الدولة إلى إبطال "ضمان النعوش والمغسلين والحمّالين"[5]. ومثل ذلك حدث في مصر ما دفع كثيراً من أرباب الصنائع إلى ترك مهنهم بعد كسادها والعمل في الجنائز في حملها وغسلها، "فنالوا بذلك جملاً مستكثرة، وصار المقرئ يأخذ عشرة دراهم، وإذا وصل

1- انظر المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، مصر، ١٢٧٠هـ ١٠٤/٢، السلوك، ج٢ق٣/٧٨٣، الفناء الكبير، ص ١٧٥، إدارة الكوارث البيولوجيّة، ص١٦.

2- انظر البداية والنهاية، ٢٢٨/١٤.

3- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٣، النجوم الزاهرة، ١٦١/١٠، ١٦٤.

4- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٤، النجوم الزاهرة، ١٦٥/١٠.

5- البداية والنهاية، ٢٢٦/١٤، إدارة الكوارث البيولوجية، ص١٦.

الميت إلى المصلاة تركه وانصرف، وصار يأخذ الحمّال ستّة دراهم بعد الدخلة عليه، وصار الحفّار يأخذ أجرة حفر كل قبر خمسين درهماً .."[1].

وفي السياق ذاته انعدم الأمن والأمان في بعض المناطق لكثرة الموت حتى صارت الفنادق في المحلة في مصر " لا تجد من يحفظها"[2]، ووجد اللصوص في مناطق أخرى، فسطوا على أموال الناس وسرقوها، فيذكر أنه لما كثر الموت في الأندلس، استغل عرب إفريقيا الوضع، فدخلوا البلاد، ونهبوا ما قدروا عليه[3]، وسطا اللصوص على أموال الناس وبيوتهم في غزة[4]، وسطا بعض الناس على أموال الميتين وبيوتهم في القاهرة، الذين عدموا الوريث بعد موتهم[5]. وعلى العموم يلاحظ من كلام المؤرخين أن السرقة لم تكن ظاهرة عامة وإنما اقتصرت على حوادث معينة هنا وهناك، ولعل سبب ذلك الوازع الديني الذي عمّ نفوس الناس، وتوقعهم الموت صباح مساء.

* * *

1- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٣، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٤ .
2- السلوك، ج٢ق٣/٧٧٨، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٠ .
3- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٥٩ .
4- انظر المصدر نفسه، ١٠/١٥٨ .
5- انظر المصدر نفسه، ١٠/١٦٤ .

الآثار الاقتصادية

انعكست آثار الطاعون في الحياة الاقتصادية في البلاد التي شملها الوباء، وكانت هذه الآثار سلبية في معظمها، ما أدى إلى زيادة معاناة الناس فوق معاناتهم. وتمثلت في:

- الغلاء وارتفاع أسعار المواد الغذائية الأساسية في البلاد[١]، وقد أكثر المؤرخون من الحديث عن ذلك وبخاصة في مصر، التي عمّها الغلاء[٢] أكثر من غيرها حتى كادت" أن تخرب في تلك السنة "[٣]، لشدة ما نزل بها وبسكانها جراء المرض. وقد ركّز المؤرخون الحديث عن ارتفاع سعر الماء هناك، حتى زادت راويته على العشرة دراهم في القاهرة[٤]، ووصلت إلى اثني عشر درهماً[٥]، وبلغ سعرها في بلاد الصعيد ثمانية دراهم[٦]. أما الطحين، فوصل ثمن الإردب من البرّ خمسة عشر درهماً[٧]، " وبيعت كل ويبة[٨] قمح بمائتي درهم "[٩]، " وبلغت أجرة طحن الإردب القمح ديناراً "[١٠]. وهي أسعار عالية قياساً إلى دخل الناس المصريين في العصر المملوكي،

- انظر الفناء الكبير، ص ١٧٠ . 1
2- انظر النجوم الزاهرة، ١٥٥/١٠ .
3- بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٠ .
4- انظر وجيز الكلام، ص ٣٤ ، النفحة المسكية، ١٦٦ .
5- انظر بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٠ .
6- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٦، النجوم الزاهرة ، ١٦٦/١٠ .
7- انظر وجيز الكلام، ٣٥، السلوك، ج٢ق٣/٧٨٦، النفحة المسكية، ١٦٦، بدائع الزهور ، ج١ق١/٥٣٠ .
8- الويبة تعادل كيلوين. انظر المعجم الوسيط، مادة " ويب " .
9- بدائع الزهور، ج١ ق١/٥٣٠ .
10- النجوم الزاهرة، ١٦٦/١٠ .

وبخاصة مع انتشار الفقر وحياة البوس في ذلك المجتمع، وإذا ما أضيفت هذه الأسعار إلى ما كان يدفع الناس إلى متولي الجنائز، علم حجم المأساة الاقتصادية التي عاناها الناس يومذاك.

وبتحليل ما أورده المؤرخون من أخبار عن الطاعون ونتائجه يمكن الوقوف على أسباب ذلك الغلاء الفاحش، وإجمالها في الآتي:

١- أشار المؤرخون أنفسهم إلى أن ارتفاع الأسعار في المواد الغذائية الرئيسة كان سببه موت الناس، والفناء الذي عمّهم[١]، ما أدى إلى قلّة عدد غلمان الخيل الذين كانوا ينقلون الماء، حتى راح من عاش منهم يستغل الوضع السائد في البلاد، فبلغ راتب الواحد منهم" في الشهر ثمانين درهماً بعد ثلاثين "[٢].

٢- كثرة موت التجار في المناطق الموبوءة، ومنها مصر وقبرص[٣]، فيذكر أنه مات نحو أربعين منهم، قدموا من بلاد الفرنج إلى الإسكندرية[٤]، وذكر اسم بعض التجار الذين ماتوا في الطاعون، ومنهم التاجر أفريدون بن محمد بن محمد بن علي الأصبهاني، الذي ورد إلى دمشق، وعاش فيها، وأنشأ فيها بعض الأعمال التجارية[٥]، و توفي في مدينة الخليل الحاج التاجر

1- انظر النجوم الزاهرة، ١٦٦/١٠، وجيز الكلام، ٣٥، بدائع الزهور، ج١ق٥٣٠/١ .

2- وجيز الكلام، ٣٥، السلوك، ج٢ق٧٨٦/٣ .

3- انظر السلوك ، ج٢ق٧٧٦/٣، النجوم الزاهرة، ١٥٨/١٠ ، ١٦٠ .

4- انظر السلوك، ج٢ق٧٧٦/٣، النجوم الزاهرة، ١٥٨/١٠ .

5- انظر الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ- ١٣٦٣م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرين، قدّم له : مازن عبد القادر المبارك ، ط١، دار الفكر المعاصر ، بيروت، لبنان، دار الفكر، سوريا، دمشق، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، ٥٤٧/١ .

شمس الدين محمد بن ليث العِدى ابن الحاج زين الدين التاجر[1]. وقد انعكس ذلك على الحياة الاقتصادية والمعيشية للناس، فقلّ جلب البضائع إلى البلاد[2]، وارتفعت الأسعار.

٣- وكثر موت الفلاحين في أثناء المرض[3]، الذي تزامن مع وقت الزراعة ثم الحصاد، فجلب ذلك الوبال على الأراضي الزراعية، التي ظلّت في معظمها دون زراعة[4]، وما زرع منها في المحلة وبلبيس والشرقية في مصر لم تجد من يحصد إنتاجها أو يضمّه[5]، وحدث مثل ذلك في بلاد الصعيد، التي قلّ الرجال فيها " فلم يخضرّ إلا نصف الأراضي "[6] فيها، ومات أكثر فلاحيها وقت الحصاد " ولم يبق منهم إلا القليل ، فخرج الأجناد بغلمانهم للحصاد، ونادوا من يحصد يأخذ نصف ما حصد، فلم يجدوا واحداً، ودرسوا غلالهم على خيولهم، وذرّوها بأيديهم، وعجزوا عن غالب الزرع فتركوه "[7].

إن هذا الخبر الأخير يدل على أنّ مزروعات كثيرة ظلّت في أرضها، ولم تحصد أو تضم، ما أدى بالضرورة إلى تلفها وخرابها، وهو سبب من أسباب قلّة المواد الغذائية في الأسواق وبالتالي ارتفاع أسعارها، وتؤكد معلومات

1- انظر أعيان العصر، ١٠٩/٥ .
2- انظر بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٠ .
- انظر الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة، ص٧٨، الفناء الكبير، ص ١٧٠ . 3
4- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٥، بدائع الزهور، ج١ ق١/٥٣٠ .
5- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٧، النجوم الزاهرة، ١٦٠/١٠ .
6- النجوم الزاهرة، ١٦٥/١٠ . وانظر ١٦٥/١٠- ١٦٦ .
7- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٥، النجوم الزاهرة، ١٦٥/١٠ .

أخرى ذلك فقد روي أنّه وجد " في جميع زراعات البُرُلُّس، وبلحها دودٌ، وتلف أكثر تمر النخل عندهم "[1].

ولم يقتصر الأمر على موت الإنسان، فمات عدد كبير من الطيور والحيوانات البرية والأليفة، ومنها ما كان يعتمد عليها الناس في إنجاز أعمالهم في الأرض والنقل والسفر وغير ذلك، وبخاصة الجمال والخيول، ما أسهم في زيادة الأسعار في البلاد المتضررة من الطاعون[2]، وقد كثر الحديث عن ذلك في المصادر التاريخية ففي بلاد إفريقيا " أصاب الغنم داء، فكانت الشاة إذا ذبحت وجد لحمها منتناً قد اسودّ وتغيّر، وماتت المواشي بأسرها "[3]، وماتت أبقار كثيرة في غزة[4]، وهلكت الكثير من الأسود والذئاب وحمر الوحش في الغور وبيسان[5]. أمّا القاهرة وبلاد الصعيد، فوجدت فيها " طيور كثيرة ميتة في الزروع ما بين غراب وحدأة وغيرها من سائر أصناف الطيور "[6]. ومات فيها عدد كبير من الإبل والجمال والحمير الوحشية والقطط والكلاب ووحوش البر[7].

وأدى الوباء إلى كساد في الحياة الاقتصادية في تلك المناطق وغيرها ممّا شملها الوباء، وبخاصة في المواد والبضائع غير الأساسية في حياة الناس، فتوفرت في الأسواق، ورخص سعرها، ومنها بلاد الفرنج إذ كانت

1- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٧، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٠ .
2- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٦، بدائع الزهور، ج١ق٢/٥٣٠ .
3- السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٩ ، النجوم الزاهرة ، ١٠/١٥٩ .
4- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٥، النجوم الزاهرة، ١٠/١٥٩ .
5- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٧٤، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٥ .
6- ا السلوك، ج٢ق٣/٧٨٤، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٥ .
7- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٤، النفحة المسكية ، ١٦٤ .

مراكب تجارها إذا مرّت ببعض بلادها " لا تجد ركابها بها أحداً، وإن صدفت في بعضها جماعة فإنهم يدعونهم أن يأخذوا أصناف البضائع ما أحبّوا بغير ثمن "[١]، وذكر أنه في بعض بلاد الصعيد لم يوجد من يشتري البرسيم " الأخضر، ولا من يربط عليه خيوله "[٢]. وانخفض سعر القماش في الصعيد "حتى أبيع بخمس ثمنه وأقلّ، ولم يوجد من يشتريه"، "وانحط قدر الذهب والفضة حتى صار الدينار بخمسة عشر درهماً بعدما كان بعشرين "[٣].

وأدى هذا الكساد الاقتصادي، واستغناء الناس عن بعض الحرف والصناعات[٤]، وكثرة موت الصنّاع والتجار، وقلّة البضائع والمواد الغذائية الأساسية إلى إغلاق الأسواق في غزّة[٥]، والإسكندرية التي أغلقت فيها أيضا دار الطراز " ودار الوكالة[٦] لعدم الواصل إليها "[٧]، وتعطّل الصيد في بحيرة البُرُلس في مصر لكثرة من مات من الصيادين[٨]. أمّا من عاش من أصحاب المهن التي توقف الطلب عليها كالإسكافي والخياط، والبابا أي غاسل الثياب وغيرهم، فامتهنوا مهناً أخرى تدر عليهم دخلاً كبيراً، وفي مقدمتها تغسيل

1- النجوم الزاهرة، ١٥٨/١٠ .
2- السلوك، ج٢ق٧٨٦/٣، النجوم الزاهرة، ١٦٥/١٠ .
3- السلوك، ج٢ق٧٨٦/٣، النجوم الزاهرة، ١٦٦/١٠ .
- انظر الفناء الكبير، ص ١٧١ . 4
5- انظر النجوم الزاهرة، ١٥٧/١٠ .
6- فندق لنزول التجار وبضائعهم .
7- النجوم الزاهرة، ١٥٩/١٠ .
8- انظر السلوك، ج٢ق٧٧٨/٣، النجوم الزاهرة، ١٦٠/١٠ .

الموتى وتكفينهم ودفنهم[1]، وراح بعضهم يستولي على إقطاعات الجند الذين ماتوا أو عجزوا عن حصد أرضهم والعمل فيها، وتطوّر الأمر إلى أن لبسوا ملابسهم حتى لا يعترض عليهم معترض من الناس[2]. ولما فشا الأمر "نودي بالقاهرة أنّ من له صنعة فليرجع إلى صنعته، وضرب جماعة منهم"[3].

الآثار السياسية

ترك وباء الطاعون آثاراً سياسية في المناطق التي شملها، وتنوّعت ما بين سلبية وإيجابية:

أمّا الآثار الإيجابية، فقد أشير إلى بعضها في المباحث السابقة، ومنها مشاركة رجال الدولة الناس في الطقوس الدينية التي دأبوا عليها في مصر والشام مثل الصلاة والدعاء والصيام، وكانت الدولة نفسها تصدر الفرمانات بعمل هذه الطقوس في هذه البلاد، فحين اشتد المرض في مصر في شهر شعبان رُسم " بالاجتماع في الجوامع للدعاء. وفي يوم الجمعة سادس شهر رمضان، نودي أن يجتمع الناس بالصناجق[4] الخليفتية والمصاحف عند قبة النصر خارج قبة القاهرة، فاجتمع الناس بعامة في جوامع مصر والقاهرة، وخرج المصريون إلى مصلى خولان بالقرافة، واستمرت قراءة البخاري بالجامع الأزهر وغيره عدة أيّام، والناس يدعون إلى الله تعالى، ويقنتون في صلواتهم، ثم خرجوا

1- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٢- ٧٨٣، النجوم الزاهرة ١٠/١٦٦، وانظر الفناء الكبير، ص ١٧١.

2- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٨٥، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٤، ١٦٥.

3- النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٦.

4- ألوية الجيش.

إلى قبّة النصر وفيهم الأمير شيخون[1] والوزير مَنْجَك اليوسفي[2]، والأمراء بملابسهم الفاخرة من الذهب في يوم الأحد ثامن شهر رمضان "[3]. واضح من النص أنّ بعض الأمراء لم يتخلوا عن مظاهر الأبهة والعظمة حتى وإن بدوا مشاركين الناس في أوجاعهم وآلامهم.

وشارك بعض الأمراء في القاهرة الناس في غسيل الموتى وتكفينهم ودفنهم، وفي مقدمة هؤلاء الأمير شيخون والأمير مَغلطاي[4]، والأمير بيبغاروس[5] الناصري، الذي قام " بتكفين من لا أهل له "، وزادوا على مئة

1- شيخون بن عبدالله العمري الناصري، تركي الجنس، ارتبط بادئ أمره بعلاقة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وترقّى بعد موته حتى صار أتابك العسكر في مصر، وهو أول من سمّي الأمير الكبير، بنى جامعاً وخانقاة في القاهرة، توفي سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م. انظر النجوم الزاهرة، ١٠/٢٥٤.

2- سيف الدين مَنْجَك بن عبد الله اليوسفي الناصري، كان أول ظهوره في عهد السلطان الناصر أحمد بن الناصر قلاوون، نابَ السلطنة بمصر، وتولّى أتابك العسكر، وحسنت أيامه، وعمّر كثيراً من المساجد والجوامع. انظر النجوم الزاهرة ١١/١٠٨.

3- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٠- ٧٨١، النجوم الزاهر، ١٠/١٦٢.

4- انظر النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٤. والأمير مُغْلطاي هو علاء الدين بن عبد الله المرتيني، تولّى نيابة قلعة دمشق مرات، ولي الحجوبية في أيام تنكز بدمشق، وتوفي بها سنة ٧٤٩هـ/١٣٥٧م. انظر ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي(ت ٨٧٤هـ- ١٤٧٠م)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الجزء الحادي عشر، حققه ووضع حواشي : محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب الوثائقية، القاهرة، مصر، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ١١/٢٥٧.

5- بيبغاروس الناصري سيف الدين بن عبد الله القاسمي، كان خاصكيا في حياة الملك الناصر محمد بن قلاوون، واشتهر ذكره في عهد الملك الصالح إسماعيل ثم في دولة المظفر حاجي، فأعطاه رتبة أمير مجلس، ثم ولاّه نيابة السلطنة، فحسنت سيرته في الناس، قتل سنة ٧٥٤هـ بعد أن خرج على الدولة .انظر ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي(ت ٨٥٣هـ- ١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، طبعه وصححه : عبد الوارث محمد علي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ١/٣٠١- ٣٠٢، المنهل الصافي

ألف[1]. وأشار البحث إلى دور رجال الدولة في اتخاذ القرارات الكفيلة بالتقليل من حدة المرض وانتشاره كما فعلوا حين أمروا بقتل الكلاب في القاهرة، أو تلك القرارات التي أجبرت الصناع على العودة إلى صنائعهم كي تعود الحياة الاقتصادية إلى سابق عهدها في الأسواق ولوقف الاستغلال الذي مارسه هؤلاء الصناع حين راحوا يستغلون الناس ويأخذون ثمناً باهظاً منهم لقاء إجراءات دفن موتاهم، وكذلك أبطلت الدولة ضمان الموتى حين زاد استغلال العاملين في الجنائز، وراحوا يرفعون أجرتهم.

وكان للطاعون أثر إيجابي على الصعيد الاقتصادي إذ حدثت وفرة في إقطاعات الجنود ورواتبهم، وذلك لكثرة من مات منهم في هذا الوباء[2].

أمّا الآثار السياسية السلبية، فتتجلى في سطو بعض الأمراء على أموال الناس، وهو ما ذُكر عن الأمير سيف الدين قَطْلبشاه نائب حلب الذي أساء السيرة في حماة وأعمالها إبّان الطاعون، إذ كان "يحتاط على التركة، وإن كان فيها ولد ذكر أو غيره، ويأخذ من أموال الناس جَهرة، حتى حصل له منها شيء كثير"، ولذا كان موته سنة ٧٥٠هـ مصدر فرح كبير للناس[3]. ومثل ذلك ما فعله موظفو الدولة الذين أرسلهم الوزير مَنْجك إلى الغربية ومناطقها في مصر فـ"أخذوا أموالاً كثيرة، ولم يحضروا منها سوى ستين ألف درهم"[4].

والمستوفى بعد الوافي، الجزء الثالث، حققه ووضع حواشيه: نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ٣/٤٨٦- ٤٨٧.

1- الدرر الكامنة، ١/٣١٠.

2- انظر نيل الأمل، ١/١٧٩.

3- البداية والنهاية، ١٤/٢٣١.

4- النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٠.

وأدى المرض إلى فرار بعض النواب من أماكن حكمهم، أو تقديم استقالاتهم، بدل أن يكونوا عوناً للناس على مصيبتهم، ومنهم نائب غزة الذي فرّ إلى العريش، " وترك غزة خالية "[1]، وطلب والي قَطيا إعفاءه من الخدمة بعد ان استشرى فيها المرض، ومات كثير من أهلها[2]. ولم يقتصر الأمر على النواب بل إن السلطان المملوكي الناصر حسناً ونائبه[3] كانا يتركان القاهرة إبّان اشتداد المرض إلى سِرْياقوس[4]، ويقيمان فيها حتى تخفّ حدّته[5].

وكان للطاعون أثر في تعطيل بعض المراسم العسكرية في القاهرة، وذلك لموت القائمين عليها، فيذكر أنّه في سنة الطاعون" بَطُلت أكثر طَبلخاناة الأمراء، وصار في طَبلخانة الأمير شيخون ثلاثة نفر بعد خمسة عشر نفراً "[6].

وخسر المسلمون عدداً من أسراهم في يد العدو إبّان المرض واشتداده، فقد روي أنّه لما كثر الموت في أهل قبرص، جمع أهلها " منْ في أيديهم من أسرى المسلمين وقتلوهم جميعاً من بعد العصر إلى المغرب خوفاً من أن تفرغ الفرنج فتملك المسلمون قبرص "[7].

1- المصدر نفسه، ١٥٨/١٠ .

2- انظر المصدر نفسه، ١٥٨/١٠ .

3- هو بدر الدين وقيل ناصر الدين أبو المعالي حسن ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة سنة ٧٤٨هـ، وهو التاسع عشر من سلاطين المماليك البحرية، خلع من الحكم مرتين، آخرها في السنة التي قتل فيها وهي ٧٦٢هـ/١٣٦١م. انظر النجوم الزاهرة ، ٣/١١ .

4- " بليدة في نواحي القاهرة بمصر"، معجم البلدان، مادة " سرياقوس " .

5- انظر النجوم الزاهرة، ١٦١/١٠ .

6- السلوك ، ج٢ق٣/٧٨٤، النجوم الزاهرة، ١٦٥/١٠ .

7- السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٦، النجوم الزاهرة، ١٥٨/١٠ .

ومات عدد كبير من الملوك والأمراء والجند في مرض الطاعون[1]، وقد أكثر المؤرخون من الحديث عن ذلك، وهو ما حدث في بلاد المغول في الصين وتبريز وبلاد الخطا"إذ مات عدد كبير من جنود القان وهو الملك بلغة المغول، " ثم هلك القان وأولاده الستة، ولم يبق بذلك الإقليم من يحكمه "[2]، ومات في بلاد الخطا " ستة عشر ملكاً في مدة ثلاثة أشهر"[3]، "وهلك لأهل قبرص ثلاثة ملوك ".

أمّا في مصر والشام، فأكثر المؤرخون من ذكر أسماء عدد من الأمراء ورجال الحكم الذين قضوا في المرض ، وقد أحصى البحث عدداً منهم، وهم:

- إبراهيم قروينة[4].
- أسندمر القليجي[5].
- بزلغي الصغير[6].
- الأمير بُلَك سيف الدين الجَمدار الناصريّ[7].

---

1 - الفناء الكبير ، ١٧٩ .

2- السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٣، النجوم الزاهرة، ١٥٦/١٠ .

3- السلوك ، ج٢ق٣/٧٧٤، النجوم الزاهرة، ١٥٧/١٠ .

4- القاضي الكبير، تولى غير منصب في الدولة المملوكية منها: مستوفي الحسبة، ونظر الجيش، ونظر الخاص. انظر أعيان العصر ، ١١٣/١- ١١٤ .

5- " ولي البحيرة في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم استقرّ في ولاية القاهرة أياماً قلائل، ومات في الطاعون". الدرر الكامنة ، ٢٢٦/١.

6- قريب السلطان الناصر محمد بن قلاوون، كان من جملة أمرائه،" وهو الذي غزا سيس وقتل صاحبها هيتوم في سنة ٧٢٠هـ". الدرر، ٢٨١/١ .

7- تولى نيابة صفد، وكان أمير مئة من الجند. انظر أعيان العصر، ٥٢/٢ .

- خليل بن الأمير سيف الدين بن البَرْجَمي[1].
- الأمير سيف الدين أُوران[2].
- الأمير سيف الدين طُرجي[3].
- الأمير سيف الدين طَشْتَمِر[4].
- الأمير سيف الدين قرابغا[5].
- الأمير سيف الدين قطز[6].
- الأمير سيف الدين كَيْتمر[7].
- طشبغا الساقي[8].
- الخوندة (الملكة) طَغاي زوج السلطان الناصر حسن[9].

1- خدم الملك الناصر حسن، وتولى إمرة طبلخاناة، وشد الدواوين، ثم أعطي إمرة عشرة من الجند. انظر أعيان العصر، ٣٢٦/٢- ٣٢٧ .

2- أمير السلاح دار واحد مقدي الألوف في دمشق . انظر أعيان العصر، ٦٣٦/١ .

3- تولى إمرة طبلخاناة السلطان في القاهرة ودمشق. انظر أعيان العصر، ٥٧٧/٢ ، الدرر ، ٢٤٥/١.

4- تولّى أمير سلاح دار، وكان من أمراء المشورة في دولة الناصر حسن ومن قبله . انظر أعيان العصر، ٥٩١/٢ .

5- عمل دواداراً للأمير سيف الدين أرغون شاه ، وكان أثيراً عنده، ومقرّباً إليه، وأعطي إمرة عشرة، ثم إمرة طبلخاناه . انظر أعيان العصر ، ٨٠/٤- ٨٢ .

6- كان أمير آخور في مصر، ثم تولى نيابة صفد، ثم استبدل بغيره سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، وتوجه إلى دمشق ومات بها . انظر أعيان العصر ، ١١٠/٤- ١١١ .

7- كان اميراً للحج، ثمّ عُيّن أمير طبلخاناه. انظر أعيان العصر، ١٦٣/٤- ١٦٤ .

8- " كان من مماليك الناصر ثم ترقّى بعده إلى أن أمر مائة في دولة ناصر حسن الأولى، ثم أخرج إلى حماة أمير طبلخاناة، ومات في الطاعون العام" . الدرر الكامنة، ١٣١/٢ .

9- الخوندة الكبرى وأم ابنه آنوك، أعتقها الناصر ثم تزوّجها، وكانت جميلة جداً ، وذات حظوة كبيرة عنده. انظر أعيان العصر ، ٥٩٩/٢- ٦٠١ .

- الأمير علاء الدين الظهري أَيْدُغْدي[1].
- علاء الدين علي بن طغريل[2].
- علاء الدين علي بن عبد الرحمن بن أبي بكر الواني[3].
- كسباي زوج الأمير سيف الدين قرابغا السابق ذكره[4].

يتضح من تراجم هؤلاء الأمراء أنهم كان لهم وضعهم في الدولة المملوكية، فمنهم من تولى إمرة في الجيش أو نظره، أو كان مسؤولاً عن سلاحه، وآخرون تولوا نيابات مدن ومناطق، وإمرة طبلخاناة، أو إمرة الحج، أو خيل السلطان ودواوينه وبريده، وغير ذلك، وهي لا شك مناصب كان لها أهميتها في الدولة، ولذا كان موتهم خسارة سياسية للدولة المملوكية.

الآثار الثقافية

كان لطاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م أثر كبير في الحياة الثقافية في العهد المملوكي الأول، وتوزعت نتائجه ما بين إيجابية وأخرى سلبية.

أما النتائج الإيجابية، فتجلّت في كثرة حديث المؤرخين عن المرض إذ شغل حيّزا كبيراً في مصادر التاريخ المملوكي، والمصادر التي جاءت بعده، وأفرد بعض المؤرخين كتباً خاصة تتناول هذا المرض عبر التاريخ ومنها هذه السنة،

1- نقيب النقباء بدمشق ، وكان شيخا مسناً، اشتغل بالعلم. انظر أعيان العصر ، ١/٦٥١- ٦٥٢ .

2- أضحى في دمشق أميراً حاجباً سنة ٧٤٨ه/١٣٤٧م، ولم يكمل عامه فيها حتى عاد إلى القاهر بأمر من السلطان، فأقام فيها بطّالاً. انظر اعيان العصر ، ٣/٣٨٥ .

3- عمل مقدما للبريدية بدمشق، وعرف بالفرا، كان رفيع الشأن عند الأمير سيف الدين تنكز، وكان ولاه السلطان محمد طبلخاناه . انظر أعيان العصر، ٣/٤١٣ .

4- انظر أعيان العصر، ٤/٨١ .

مثل كتاب " بذل الماعون في فضل الطاعون " ، لابن حجر العسقلاني ، وكتاب " ما رواه الواعون في خبر الطاعون " ، لجلال الدين السيوطي.

وشارك العلماء الناس في رفع أكف الضراعة إلى الله ، والدعاء له كي يخفف عنهم ما ألمّ بهم جراء الطاعون ، وكانوا يحثّون الناس على العبادة والاجتماع والدعاء والاعتكاف ، وقد أشار المؤرخون إلى الدور الذي أداه الفقهاء والمقرئون والخطباء والقضاة يومذاك[1] ، وذكروا "أنّه لما تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية ، وخرج عن الحد ، أشارت العلماء أن الناس تخرج قاطبة إلى الصحراء ... ، ويفعلوا كما يفعلون في الاستسقاء"[2] ، ومن الذين ذكرت أسماؤهم شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني[3] ، الذي "خرج وهو ماش على أقدامه من بيته... ، والناس حوله يذكرون حتى أتى إلى الجامع الأزهر ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فخطب بالناس خطبة بليغة ، وأمرهم بالتوبة من ذنوبهم ، وابتهل الناس إلى الله تعالى بالدعاء"[4].

وتجلّى أثره في الحركة الأدبية شعراً ونثرا[5] :

1- انظر البداية والنهاية ، ١٤/٢٢٧ ، رحلة ابن بطوطة ، ٩٣ ، ٥٦٨ .

2- بدائع الزهور ، ج١ق١/٥٣١ .

3- عمر بن رسلان بن نصير بن صالح السراج البلقيني شيخ الإسلام ، ولد سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م ، ونزل القاهرة ، حفظ القرآن وله سبع سنين ، وقدم مع أبيه إلى القاهرة سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م ، وطلب العلم فنبغ ، فدرس الحديث والنحو والفقه والأصول ، وأفتى وهو صغير ، توفي سنة ٨٠٥هـ. انظر ابن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م ، ٥/١٠٧.

4- بدائع الزهور ، ج١ق١/٥٣١ .

5- انظر رسالة النبا عن الوبا دراسة موضوعية وفنية ، ١٤٩٨. وهناك رسالة ماجستير غير منشورة أنجزت في قسم اللغة العربية- جامعة النجاح الوطنية ، سنة ٢٠١٣م ، تناولت أدب الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول ، لإسراء عبد الجبار كلش ، ومنها طاعون سنة ٧٤٩هـ .

أمّا النثر، فقد أنشأ فيه زين الدين عمر بن الوردي[1] رسالة وقيل مقامة وقفت على جوانب المرض المختلفة في مدينته حلب[2]، ووصفه فيها وصف مطلع خبير ذلك أنه عاصر الوباء، واكتوى بناره، ومات فيه[3]. وقد صنف ابن الوردي ما كتب في باب الرسائل في حين عدّها مؤرخون آخرون مقامة، وأشادوا ببلاغتها وحسنها[4]. وخلّد هذا الطاعون الفقيه الأديب بهاء الدين السبكي[5] في رسالة كان أرسلها إلى الشيخ الأديب صلاح الدين الصفدي[6]،

1- هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، زين الدين أبو حفص بن الوردي المعري، شيخ وإمام وفقيه شافعي ونحوي وأديب ، تولى القضاء في حلب، وكان من أعلام عصره في الفقه والأدب، له ديوان شعر، ومؤلفات عديدة في الفقه والنحو، منها البهجة الوردية في الفقه، وفوائد فقهية، وشرح ألفية ابن مالك، وضوء الدرة على ألفية ابن مالك، وقصيدة اللباب في علم الإعراب، واختصار ملحة الإعراب، وتذكرة الغريب، توفي في طاعون حلب سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. انظر ترجمته في أعيان العصر، ٦٧٧/٣ وما بعدها، ألحان السواجع ، ٢٥/٤، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ٤٥/٣، ذيول العبر، ٢٧٥/٦، وجيز الكلام، ٣٨/١- ٣٩، نيل الأمل، ج١ق١/١٧٩- ١٨٠، بدائع الزهور، ج١ق١/٥٢٤، شذرت الذهب، ٢٧٥/٨ .

2- درس رائد عبد الرحيم هذه الرسالة في بحث مستقل ، وهو " رسالة النبا عن الوبا لزين الدين بن الوردي ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م، دراسة موضوعية وفنية " .

3- انظر الرسالة في ديوان ابن االوردي، ص ٨٦—٩٤، ووردت أجزاء منها في كتاب تاريخ ابن الوردي، المعروف باسم تتمة المختصر في أخبار البشر، ٤٩٧/٢- ٥٠٠، وكتاب تذكرة النبيه، ١١٢/٣، ما رواه الواعون، ورقة ١٣- ١٤

4- انظر أعيان العصر، ٦٩٧/٣، وأطلق عليها اسم "النبا في الوبا، وجيز الكلام، ٣٥/١، نيل الأمل، ج١ق١/١٧٨، شذرات الذهب، ٢٧١/٨

5- أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف ، فقيه أصولي، ولد سنة ٧١٩هـ، وسمع بمصر والشام، أفتى ودرّس، وولي القضاء بالشام ، توفي مكة سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م ، وله العديد من المؤلفات. انظر ترجمته في: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ- ١٣٦٣م)، ألحان السواجع بين البادي والمراجع، تحقيق: محمد عايش، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، ٩١/١، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، ١٦١/٧ .

6- صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أيبك بن عبد الله الألبكي الفاري الصفدي الدمشقي الشافعي، ابن لأحد أمراء المماليك في صفد سنة ٩٦٩هـ/١٥٦٢م، كانت أسرته ثرية، فنشأ نشأة مرفهة، حفظ القرآن في صغره، وبرع في علوم عديدة، ومنها الأدب والنقد واللغة والنحو والإنشاء،

صوّر فيها الطاعون وشدته وعنفه وأعراضه وعمومه، وأثره في الحياة الاجتماعية والنفسية للناس[1]. وردّ عليه الأديب الشيخ صلاح الدين الصفدي برسالة أخرى، عبّر فيها عن المرض وأول ابتدائه، والمناطق التي شملها، مصوراً في سطورها آثاره المختلفة في حياة الناس[2].

وكان للمرض حضور في بعض الرحلات، ومنها رحلة ابن بطوطة، الذي شاهد بعض آثار المرض في بلاد الشام ومصر، وتحدث عن عدد الموتى، وما سمعه من الناس يومذاك حول أهواله[3].

وأكثر الشعراء من القول في طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، وفي وصف شدته وأعراضه وبعض نتائجه، وحالة الناس النفسية إبّان انتشاره واستفحال أمره، وقد أشار المؤرخون إلى ذلك إذ قالوا:

- " وقال أهل الأدب في ذلك أشياء من النّظم والنثر "[4].
- " وقد أكثر الناس ذكر هذا الوباء في أشعارهم "[5].
- " وقد أكثر الناس من ذكره في أشعارهم "[6].
- " وأكثر الشعراء وغيرهم في ذكره "[7].

وكتب الخط المنسوب، وتولى غير منصب في دواوين الإنشاء في صفد وغيرها، وله مؤلفات كثيرة جدا. انظر عنه مقدمة كتاب ألحان السواجع، ٦/١ وما بعدها.

1- انظر الرسالة في ألحان السواجع، ١٠٩/٣- ١١١.

2- انظر الرسالة في ألحان السواجع، ١١١/١- ١١٨.

3- انظر رحلة ابن بطوطة، ٥٨٦- ٥٨٧.

4- تذكرة النبيه، ١١٢/٣.

5- النجوم الزاهرة، ١٦٦/١٠.

6- السلوك، ج٢ق٧٨٧/٣.

7- وجيز الكلام، ٣٥/١. وانظر نيل الأمل، ج١ق١٧٧/١، بدائع الزهور، ج١ق٥٣١/١، رسالة النبا عن الوبا دراسة موضوعية وفنية، ١٤٩٨.

وقد استقرأ البحث النصوص الشعرية التي قيلت في المرض، ورأى إثباتها كي تكون مرجعا للباحثين في المجال الأدبي، وهي :

- قال الشاعر شهاب الدين إبراهيم المعمار[1]، وهو ممّن ماتوا في المرض[2]:

يا طالباً الموتَ قُمْ واغتنمْ هذا أوانُ الموتِ ما فاتا

قد رَخُص الموتُ على أهلِهِ ومات مَنْ لا عُمْرُهُ ماتا

وقال فيه[3]:

نُراعُ بِذِكرِ الموتِ ساعةَ ذِكرِهِ فنعرضُ للدنيا فنلهو ونلعبُ

ونحنُ بنو الدُّنيا ما خُلقنا لغيرها وما كنتُ منهُ فهو شيءٌ مُحبّبُ

وقال[4]:

قبّح اللهُ الطاعونَ داءً فَقَدْتُ فيه الأحبهْ

1- قيل المعمار، وقيل الحجّار، إبراهيم بن علي الشيخ برهان الدين المعروف بابن غلام النوري، كان من فحول شعراء العصر المملوكي الأول، واشتهر بشعره الشعبي، كان عاميّا ظريفا، وهو من أرباب مدرسة التورية في ذلك العصر، اشتهر بنكته الأدبية، وخصوصا في المقطعات.، توفي في طاعون مصر سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. انظر ترجمته في: أعيان العصر، ١٤٦- ١٤٧، ألحان السواجع بين البادي والمراجع، ٥٧/١، تذكرة النبيه، ١٣٢/٣، الدرر الكامنة، ٣٥/١، نيل الأمل، ج١ق١/١٧٧- ١٧٨، بدائع الزهور، ج١ق١/٥٢٧

2- أعيان العصر، ١٤٧/١، ألحان السواجع، ١١١/١، نيل الأمل، ج١ق١/١٧٧، النجوم الزاهرة، ١٦٨/١٠، وجيز الكلام، ٣٥/١، بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٢

3- بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٢.

4- نيل الأمل، ج١ ق١/١٧٧، السلوك، ج٢ق٣/٧٩١، النجوم الزاهرة، ١٦٨/١٠، بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٢.

بيعــتِ الأنفـــسُ فيـــه كـــلٌّ إنـــسانٍ بحبّـــه[1]

وقال[2]:

قلتُ لمن بالحشيشِ مُشتغلُ ويحكَ أما تَخشى هذه الكَتَبهْ

فالناس ماتوا بِكُبّةٍ ظهـرَتْ فقـــال إنّـي أعيـــش بالكُبّـهْ

وقال زين الدين بنِ الوردي[3]:

إنّ الوبـــا قـــد غلبـــا وقـــد بـــدا في حلـــبا

قـالوا لـه علـى الـوَرى كـــافٌ ورا قلـــتُ وبـــا

وقال[4]:

قـالوا فـسادُ الهـواءِ يُـردي فقلـتُ يـردي هـوى الفـسادِ

كـم سيّئاتٍ وكـم خطايـا نـادى علـيكم بـها المُنـادي

وقال[5]:

اســـودّتِ الـــشهباءُ في عـــينيَّ مـــن رِمـــمٍ وغِـــشٍّ

كـادت بنـو نعـشٍ بهـا أن يلحقـوا ببنـات نعـشِ[6]

1- إشارة إلى أعراض المرض الحبوب البثرة التي كانت إذا ظهرت في جسم المصاب مات من فوره .

2- بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٢ .

3- ديوان ابن الوردي، ٩٠، السلوك، ج٢ق٣/٧٨٧، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٨.

4- ديوان ابن الوردي، ٩٢، السلوك، ج٢ق٣/٧٨٨، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٧ .

5- ديوان ابن الوردي ، ٩١- ٩٢ .

6- في البيت تورية وهو إشارة إلى أنّ أرباب الجنائز من كثرة ما رفعوا أجورهم ، وحصلوا من أموال الناس كادوا يرتفعون في منزلتهم ليصلوا إلى منزلة بنات نعش ، وهي من أكثر نجوم السماء علوّاً .

وقال[1]:

يقـولونَ شـمّ الخـلّ في زَمَـنِ الوبـا ... وفاقـاً لمـا قـال الأطبّـاءُ يـا خلّـي

فإنْ قُلتُ للطاعونِ تسطو على الورى ... يقـول: نعـم أسـطو وأنفُـكَ في الخـلِّ

وقال[2]:

سـألتُ بـارئَ النّـسَـم ... في دفـع طـاعونٍ صَـدَمْ

فمـنْ أحـسَّ بَلْـعَ دَمٍ ... فقـد أحـسَّ بالعَـدمْ

وقال[3]:

يـا أيُّهـا الطـاعونُ إنّ حمـاةَ مـن ... خـيرِ الـبلادِ ومـن أعـزِّ حـصونِها

لا كنتَ حين شَـمَمْتَها فَسَممتَها ... ولثمـتَ فاهـا آخـذا بقرونهـا

وقال[4]:

سكّانُ سيس يسرُّهم ما ساءنا ... وكـذا العوائـدُ مـن عـدوِّ الـدّينِ

اللهُ يَنْقُلُـهُ إليهـم عاجـلا ... ليُمـزّقَ الطّـاغوتُ بالطّـاعونِ

وقال[5]:

اللهُ أكـبرُ مـن وبـاءٍ قـد سـبا ... ويـصولُ في العقـلاءِ كـالمجنونِ

1- ديوان ابن الوردي، ٩٢، تذكرة النبيه، ١٣١/٣، بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٢.

2- ديوان ابن الوردي، ٩٠.

3- المصدر نفسه، ٨٩.

4- ديوان ابن الوردي، ٩٢، النجوم الزاهرة، ١٦٨/١٠.

5- ديوان ابن الوردي، ٩٠، السلوك، ج٢ق٣/٧٨٧- ٧٨٨.

سـنّتْ أسـنّتُهُ لكـلِّ مدينـــةٍ فعجبــتُ للمــكروهِ في المـــنونِ

وقال[1]:

رأى المعرّةَ عينــاً زانها حَـوَرٌ لكــنّ حاجبهــا بــالجورِ مقـــرونُ

ماذا الذي يصنعُ الموتُ في بلدٍ لــهُ في كــلِّ يــومٍ بــالظلمِ طــاعونُ

وقال[2]:

حلـــــبُ والله يكفـــــي شـــــرّها أرض مـــــشقهْ

أصـــبحتْ حيّـــةَ ســـوءٍ تقتـــلُ النـــاسَ ببـــزقهْ[3]

وقال[4]:

إســـكندريةُ ذا الوبـــا سبـــعٌ يمـــدُّ إليـــكِ ضَبعَـــهْ

صـــبراً لقـــسمتهِ الـــتي تركـــتْ مـــن الـــسبعينِ ســـبعهْ

وقال[5]:

أصـــلحَ الله دمـــشقـــاً وحماهـــا عـــن مـــسبّهْ

نفـــسُها خـــسَّتْ إلى أنْ تقتـــلَ النـــاسَ بحبّـــهْ

1- ديوان ابن الوردي، ٨٩ ، روض المناظر، ٢٨٣ .
2- ديوان ابن الوردي، ٩١، النجوم الزاهرة، ١٦٧/١٠ .
3- إشارة إلى بعض أعراض المرض وهو بصق الدم بعد الإصابة بالمرض .
4- ديوان ابن الوردي، ٨٧، السلوك، ج٢ق٧٨٧/٣ .
5- ديوان ابن الوردي، ٨٨، السلوك، ج٢ق٧٨٧/٣ .

وقال[1]:

فهـــذا يوصـــي بـــأولاده ... وهـــــذا يـــــودّع جيرانـــــه

وهـــــذا يهيـــئ أشـــغاله ... وهـــــذا يجـــــهز أكفـــــانه

وهـــــذا يـــصالح أعـــداءه ... وهـــــذا يلاطـــــف إخوانـــــه

وهـــــذا يوسّـــع انفـــــاقه ... وهـــــذا يخالـــلُ مـــن خانـــه

وهـــــذا يحـــبّس أموالـــه ... وهـــــذا يحـــــرّر غلمانـــــه

وهـــــذا يغيّـــر أخـــــلاقه ... وهـــــذا يعيّـــــر ميزانـــــه

وله كان وكان[2] في الطاعون[3]:

أعـــــوذُ بـــاللهِ ربـــي ... مـــن شـــرِّ طـــاعونِ النَّـــسبْ

بـــــارودُه المـــستعلـي ... قـــد طـــــارَ في الأقطـــارِ

فتّـــاش دهـــاشـــــاته ... ســـاعي لـــصارخ مـــا رُثـــي

ولا فـــــدى بدخـــــيرِهِ ... دولابـــــــهُ الطيـــــــارِ

يـــدخلُ إلى الـــدّارِ ويحلـــفُ ... مـــا يخـــــرجُ إلا بأهلهـــــا

1- ديوان ابن الوردي، ٩٤، السلوك، ج٢ ق٢/٧٨٨.

2- فن من فنون الأدب العامي، له وزن واحد وقافية واحدة، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني، ولا تكون قافيته إلا مردوفة قبل حرف الروي بأحد حروف العلّة، اخترعه البغادة لنظم الحكايات والخرافات، ثم تطور لبقية الأغراض. انظر ابن حجة الحموي، بلوغ الأمل في فن الزجل، ١٣٩.

3- ديوان ابن الوردي، ٩٣.

معـــي كتـــابُ القاضـــــي بكـــــلٍّ مـــــن في الـــــدّارِ

- وقال[1] الشيخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عمر بن الوردي[2] في العائقِ الطبّاخ في دمشق لما اتى بالمرض ومات فيه:

قـد غلـبَ العـايقِ في قولِـهِ لّمـا أتـى الطـاعونُ بالحـادثِ

فمحـبتي تقتـلُ في يومهـا وأنـت في يـومينِ والثالـثِ

- وقال صلاح الدين الصفدي فيه[3]:

يـا ربُّ أنـتَ اللطيـفُ صُـنعاً تفعـلُ في الخلـقِ مـا تـشاءُ

ثـلاثُ غينـاتٍ احتـوتنا الغـمُّ والغُـبنُ والغـلاءُ

فاءاتُهـا في الـورى ثـلاثٌ الفِكـرُ والفقـرُ والفَنـاءُ

يـا ربُّ فـامننْ بـراء رِفـقٍ يتبعُهـا الـرِّزق والرّخـاءُ

وقال[4]:

قدْ قُلتُ للطاعـونِ وهوَ بغزّةٍ قـد جـالَ مـن قَطيـا إلى بـيروتِ

أخليتَ أرْضَ الشامِ من سكّانها وحكمـتَ يـا طـاعونُ بالطَـاغوتِ

1- تذكرة النبيه ، ١٢٠/٣ .

2- هو أخ الشاعر زين الدين عمر بن الوردي ، توفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ، كان إماما وعالما وفقيها ، تولى نيابة الحكم في حلب ، وكتب في ديوان الإنشاء، وعاش قريبا من سبعين سنة. انظر تذكرة النبيه ، ١١٩/٣ - ١٢٠ .

3- وجيز الكلام، ٣٥/١.

4- ألحان السواجع، ١١٢/١ ، السلوك، ج٢ق٧٨٨/٣، النجوم الزاهرة، ١٦٧/١٠.

وقال[1]:

يا رَحْمتا لدمشقَ من طاعونها ... فالكلُّ مغتبقٌ به أو مُصطَبِحُ

كم هالكٍ نفثَ الدِّما من حَلْقِهِ ... أَوَما تراهُ بغيرِ سكّينٍ ذُبح

وقال[2]:

أسَفي على أكنافِ جلّقَ إذْ غدا ... الطاعونُ فيها ذا زِنادٍ واري

الموتُ أرخصُ ما يكونُ بجنّةٍ ... والظُّلمُ زادَ فصارَ بالقِنطارِ

وقال[3]:

لا تثقْ بالحياةِ طَرفَةَ عينٍ ... في زمانٍ طاعونُهُ مستَطيرُ

فكأنَّ القبورَ شُعلةَ شَمْعٍ ... والبرايا لها فراشٌ تطيرُ

وقال[4]:

آمنتُ باللهِ العظيمِ مُقدِّرِ ... الطاعونِ حتى عمَّ كلَّ الناسِ

كم معشرٍ فقدوا به في جُمعةٍ ... أتراهم خُلقوا من الأشراسِ

وقال[5]:

أمّا دمشقُ فإنّها قد أوحشتْ ... من بعدِ ما شَهِدَ البريّة أنسَها

1- أعيان العصر، ٤١/٣، ألحان السواجع، ١١٥/١، السلوك، ج٢ق٧٨٩/٣.

2- ألحان السواجع، ١١٣/١، السلوك، ج٢ق٧٨٩/٣.

3- ألحان السواجع، ١١٥/١، السلوك، ج٢ق٧٩١/٣.

4- ألحان السواجع، ١١٥/١.

5- الحان السواجع، ١١٤/١، السلوك، ج٢ق٧٨٩/٣.

تاهتْ بِعُجْبٍ زائدٍ حتّى لقـد ضَـرَبَتْ بطـاعونٍ عظـيمٍ نفْـسَها

وقال[1]:

رعى الرحمنُ دهراً قد تولّى يُجـازي بالـسلامةِ كـلَّ شـرطِ

وكـان النـاسُ في غفـلاتِ أمـرٍ فجـا طـاعونهم مـن تحـت إبْـطِ[2]

وقال وقد " ضبط تاريخه بحروف الجمل"[3]:

يا عام طا ميم ذال فيكَ أيٌّ عناً قاسـى الأنـامُ رداهُ مـن فلـسطينِ

كـم قـد رأينـا فنـاءً فيـه نهـرُ فنـا تـدورُ منـهُ طـواحينُ الطّـواعينِ

وقال[4]:

تعجّبتُ من طاعونِ جلّقَ إذ غـدا ومـا فاتـت الآذانُ وقعـةَ طَعْـنِ

فكم مؤمنٍ تراه أذعـنَ طائـعا على أنّه قـد مـات مـن خلـفِ أُذْنـه

وقال أيضاً[5]:

لمـا افترسـتَ صـحابي يـا عـامَ تـسعٍ وأربعينـا

مـا كنـتَ واللهِ تِـسعـا بـل كُنـتَ سبعـاً يَقينـا

1- ألحان السواجع، ١١٤/١، السلوك، ج٢ق٧٨٩/٣، النجوم الزاهرة، ١٦٧/١٠.

2- إشارة إلى ما كان يجده الناس من كبّة تحت إبط الميتين، وهي من أعراض المرض.

3- ألحان السواجع، ١١٣/١.

4- ألحان السواجع، ١١٤/١، السلوك، ج٢ق٧٨٩/٣.

5- ألحان السواجع، ١١٣/١، أعيان العصر ٥٢٠/٣، السلوك، ج٢ق٧٨٨/٣- ٧٨٩، النفحة المسكية، ١٦٦.

وقال متحدثاً عن الطاعون إذ رثى العالم شمس الدين الأكفاني[1] وقد توفي فيه[2]:

من الطاعونِ قلبي في انقلابِ ... فإنّ لكلِّ منْ تلقاهُ فاني

ولّما ماتَ شمسُ الدينِ نادى ... كفاني فقدُ الأكفاني كفاني

وقال[3]:

قد نغّصَ الطاعونُ عيشَ الورى ... وأهلكَ الوالدَ والوالده

كم منزلٍ كالشّمعِ سكّانُهُ ... أطفأهُم في نفخةٍ واحده

وقال[4]:

مصيبةُ الطاعونِ قد أصبحتْ ... لم تخلُ منها في الورى بُقعهْ

تدخلُ في المنزلِ لو أنّهُ ... مدينةٌ أخْلَتْهُ في جُمعهْ

وقال[5]:

ثلَّ هذا الطاعونُ عرشَ دمشقٍ ... بقضاءٍ من ربِّنا سبحانهْ

فلكمْ ماتَ بالخيارةِ شخصٌ ... كان يبدو كأنّه ريحانهْ

1- أحد علماء القاهرة المشهورين في عصره، وستأتي ترجمته مفصلة في الحديث عن العلماء الذين قضوا بهذا الطاعون.

2- أعيان العصر، ٤/٢٣٠.

3- ألحان السواجع، ١/١١٥، السلوك، ج٢ق٣/٧٩٠.

4- الحان السواجع، ١/١١٥، السلوك، ج٢ق٣/٧٩٠.

5- ألحان السواجع، ١/١١٤.

وقال[1]:

أيقظتنا يدُ الغلاءِ مراراً ... لنراعي التُّقى فلمْ نتنبّهْ

وغدا الظُّلمُ بالقناطير فينا ... فلهذا الطاعونُ صارَ بحبّهْ

وقال[2]:

دارتْ من الطاعونِ كأسُ الفَنا ... فالنفسُ من سكرَتِهِ كافحهْ

قد خالفَ الشّرْعَ وأحكامهُ ... لأنّهُ يَثْبُتُ بالرائحهْ

وقال فيه[3] الشاعر ابن أبي حَجْلَة التِّلمساني[4]:

أرى الطّاعونَ يفتِكُ بالبَرايا ... ويطْعَنُ طَعْنَ أربابِ الحِرابِ

ويُنشدُ عندَ هَدْمِ العُمرِ منّا ... لِدوا للموتِ وابنوا للخرابِ

وقال فيه[5] الشاعر جمال الدين بن نباتة المصري[1]:

1- المصدر نفسه، ١/١١٤.

2- ألحان السواجع، ١/١١٣، السلوك، ج٢ق٣/٧٨٩.

3- وجيز الكلام، ١/٣٤- ٣٥.

4- أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد، ولد بتلمسان سنة ٧٢٥هـ أو ٧٢٦هـ، ونزل القاهرة، وهو شاعر وأديب وكاتب، وله كتب كثيرة في هذه العلوم والفنون، توفي في طاعون ٧٧٦هـ/١٣٧٤م. انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ١/٣٥٠، إنباء الغمر، ١/١٠٨- ١٠٩، ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي(ت ٨٧٤هـ- ١٤٧٩م)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الجزء الثاني، حقّقه ووضع حواشي: محمد محمد أمين، تقديم: سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، ٢/٢٥٩.

5- السلوك، ج٢ق٣/٧٩٠، النجوم الزاهرة، ١٠/١٦٦.

سِرْ بنا عن دِمشق يا طالبَ العيـ ـــشِ في المُقـــام للمـــرءِ رَغبـــهْ
رَخُصَتْ أنْفُسُ الخلائقِ بالطـا عـــونِ فيهـــا فكـــلُّ نَفْـسٍ بحبّـهْ

وقال الشاعر بدر الدين بن حبيب[٢] فيه قصيدة طويلة منها[٣]:

إنّ هـذا الطـاعونَ يَفْتِكُ في العـا لـمِ فَتْـكَ امـرئٍ ظلـومٍ حقـودِ
ويطـوفُ البلادَ شرقاً وغـرباً ويـسوقُ الخلـوقَ نحـو اللـحودِ
قد أباحَ البلادَ وحرم جمعَ الشـ ـملِ قهـراً وحـلَّ نَظْـمَ العُقـودِ
كم طوى النّشرَ من أخ عن أخيه وسـبى عقـلَ والـدٍ بوليـدِ
أيتمَ الأطفالَ أثكلَ الأمَّ أبكى العينَ أجـرى الدّمـوعَ فـوقَ الخُـدود
بسهامٍ يرمـي الأنـامَ خفيّـاتٍ تـشقّ القلـوبَ قبـلَ الجلـودِ
كلّمـا قلت زِدت في النّقلِ أقصرْ وتَثَبّـتْ يقـولُ هـل مـن مزيـدِ
إنْ أَعِش بَعْـدَهُ فإنّي شَكـورٌ مخلـصُ الحمـدِ للـوليِّ الحميـدِ

1- جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المصري المعروف بابن نباتة، ولد سنة ٦٨٦هـ، ونشأ بمصر، وبرع في عدة فنون، وهو شاعر وناثر وناقد، من فحول أدباء العصر المملوكي الأول، توفي سنة ٧٦٨هـ./١٣٦٧م انظر النجوم الزاهرة، ٧٦/١١.

2- بدر الدين حسن بن زيد الدين عمر بن الحسين الحلبي الشافعي، كان عالماً بالنحو والبديع والتصريف والعروض والتاريخ، وله كتب عديدة منها "درة الأسلاك في دولة الأتراك"، و"وتذكرة النبيه في أيام الملك المنصور وبنيه"، باشر الحكم، وكتب الإنشاء في حلب، وتولى وظائف دينية، وكان بارعا في صناعتي الإنشاء والشروط.، توفي سنة ٧٧٩هـ. انظر النجوم الزاهرة، ١٥٣/١١- ١٥٤.

3- تذكرة النبيه، ١١٣/٣، السلوك، ج٢ق٧٩٠/٣، النجوم الزاهرة، ١٦٧/١٠.

وإذا مِتُّ هنّئوني وقولوا كم قتيلٍ كما قتلتَ شهيدُ

وقال آخر[1]:

تُروِّعنا الجنائزُ مُقبلاتٍ وَنلهو حين تَذْهَبُ مُدبراتِ

كروعِ جَهمةٍ لمغارِ سبعٍ فلمّا غابَ عادتْ راتعات

وقال شاعر آخر[2]:

لم أنسَ قولَ الخلِّ والخلُّ يرى بأنْفِهِ خوفَ فناءِ غَلَبا

إنّ الوبا في حلبٍ أضحى له على الورى كاف ورا وقلت وبا

ومن الجدير بالذكر أن بعض الأشعار ضاعت ولم تصل، وهو ما يستشف من قول ابن حجر الذي ذكرأن الشاعر فخر الدين عبد الوهاب النصري[3]، كتب أبياتاً في الوباء يتلاعب فيها، ولم يثبتها هو ولا غيره من الكتب التي رجع إليها البحث.

وكان للطاعون آثار سلبية في الحياة الثقافية في العصر المملوكي الأول، وتمثلت هذه الآثار في:

- تشتت كتب العلوم وضياعها، وهو ما حدث في الصعيد إذ غلت الأسعار، واحتاج الناس إلى النقود ليعتاشوا فـ " صارت كتب العلم يُنادى عليها بالأحمال، فيُباع كلُّ حمل بأبخس الأثمان "[4].

1- بدائع الزهور، ج١ق١/٥٣٢- ٥٣٣ .

2- تذكرة ابن النبيه، ١١٠/٣ .

3- انظر الدرر الكامنة، ١١٨/٤ .

4- السلوك، ج٢ق٣/٧٨٦، النجوم الزاهرة، ١٦٦/١٠ .

• موت عدد كبير من العلماء والأدباء والأعيان والعدول والشيوخ في مصر والشام في هذا الوباء[1]، ويذكر ابن بطوطة أنّه حين زار القدس إبّان المرض وعاد إليها بعد عشرين سنة وجد أكثر من كان يعرفهم من أشياخها قد ماتوا، ولقي نفس المصير علماء غزة، الذين كان عددهم ثمانين، فلم يبق منهم إلا الربع[2].

ويتّضح من أسماء العلماء والأدباء أنهم كانوا من أعلام الأدب والثقافة والعلم في عصرهم، فقد بلغوا شأواً عظيماً في العلوم والفنون، حتى أطلق عليهم ألقاب متنوعة بين الشيخ والإمام، وكانوا ما بين قاض وفقيه ومحدث ومفسر وكاتب وأديب وشاعر، تولوا مناصب علمية مهمة، ودرّسوا في مدارس، ودورعلم كثيرة، وتلْمَذ لهم عدد كبير من طلاب العلم وشيوخه، وألفوا كتباً كثيرة في العلوم والفنون المختلفة، وهذا يظهر حجم الخسارة التي منيت بها الحركة الثقافية جراء المرض. وقد رصد البحث أعداداً كبيرة من هؤلاء العلماء والأدباء الذين قضوا إبان المرض، وهذه أسماؤهم، ونبذة عن حياتهم:

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
إبراهيم بن أحمد بن المحب عبد الله بن أحمد أبو إسحاق المقدسي	ولد سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، سمع الحديث، ومهر في الخط، وحدّث في الجامع الأموى وجامع تنكز

1- انظر وجيز الكلام، ٣٥، بدائع الزهور، ج١ق١/٥٢٣ .

٣- انظر رحلة ابن بطوطة، ٥٨٦ . 2

3- انظر الدرر الكامنة، ١٢/١- ١٣ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
	بدمشق، وتوفي في طاعونها[٣].
إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن صالح بن العجمي	اشتغل بالأدب " وقال الشعر الحسن، وتعلّم النحو والموسيقا، ومات في طاعون حلب "[١].
إبراهيم بن لاجين بن عبد الله الرشيدي الأغَري	ولد سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، درس الفقه والقراءات والحديث والمنطق والنحو والتفسير، وكان يعرف الطب والحساب، وولي الخطابة[٢].
إبراهيم المعمار	سبق الحديث عنه
أحمد الأديب المصري المعروف بسميكة	من الأدباء الوشاحين في العصر المملوكي[٣].
أحمد بن سعيد بن عمر السيوطي أبو العباس	ولد سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، وكان ممن اشتهروا بعلم الحديث[٤].
أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي الحنفي	الشيخ الإمام العالم، ولد سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، اشتغل في علم النحو واللغة والحديث وفنونه، وله شعر، وكتب تاريخا للنحاة، وله كتاب" الدر اللقيط من البحر المحيط " في مجلدين، و" الجمع بين العباب

1- المصدر نفسه، ٣١/١.

2- انظر ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد أبو بكر الدمشقي(ت٨٥١هـ- ١٤٤٨م)، طبقات الشافعية، علّق عليه: الحافظ عبد العليم خان، رتّب فهارسه: عبد الله أنيس الطبّاع، ط١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧، ٦/٣- ٧، الدرر الكامنة، ٤٩/١.

3- انظر الدرر الكامنة، ٢٠١/١.

4- انظر المصدر نفسه، ٨٣/١.

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
	المحكم "، و " والجمع المنتقاة في أخبار اللغويين والنحاة "، و " شرح الفصيح "، و " شرح مختصر ابن الحاجب وشرح شافيته ". ودرّس وناب عن الحكم[1].
أحمد بن عبد الله بن أحمد بن المحب عبد الله بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد ابن عبد الرحمن ابن إسماعيل بن منصور المقدسي أبو الفتح	ولد سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، سمع الحديث" ثم تنبّه وطلب بنفسه، وقرأ وخرّج لنفسه ولغيره "[2].
أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطَّنجالي أبو جعفر	قرأ صناعة الطب، وولي القضاء، مات بالطاعون في سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م[3].
أحمد بن علي بن محمد بن عبد البر الخولاني الغرناطي	أخذ الأدب عن جماعة في إفريقية، " ثم سكن تونس يداوي الناس بالطب، مات بالطاعون سنة ٧٥٠/١٣٤٩م "[4].
أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عماد الدين بن مكي بن مسلم بن أبي الجوف المصري المعروف بعكوّك	كان مكثرا من قراءة الأدب، جيداً في نقده، وجمع من شعر المتأخرين مجاميع، مات في طاعون دمشق[5].

1- انظر أعيان العصر، ج١/٣٦٥- ٣٦٦، شذرات الذهب، ٢٧٣/٨

2- الدرر الكامنة، ١٠٧/١ .

3- انظر المصدر نفسه، ١٠٩/١ .

4- المصدر نفسه، ١٣٠/١ .

5- انظر أعيان العصر، ٣٦٥/١، الدرر الكامنة، ١٥٢/١ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
أحمد بن محمد بن قيس شهاب الدين أبو العباس	ولد في حدود سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، وكان إماماً عالما في الفقه الشافعي، وكان فقيه الديار المصرية، وشيخ الشافعية فيها "سمع من جماعة، ودرّس وأفتى، اشتغل بالعلم، وشاع اسمه، وبَعُد صيته"[1].
أحمد بن مسعود بن أحمد بن ممدود، شهاب الدين أبو العباس السنهوري الضرير	اشتهر بمدح الرسول، صلى الله عليه وسلّم، فعرف بالمادح، نظم قصائده المعجميات في المديح النبويّ، توفي في طاعون مصر[2]
أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلّي القرشي العمري الشافعي شهاب الدين أبو العباس	ولد بدمشق سنٍ ٧٠٠هـ/١٣٠١م، كان إماما أديباً بارعا، تفقه ودرس الحديث والأصول والنحو والأدب والعروض وبرع فيها، ونظم الشعر و كتب النثر، وأنشا الكثير من المناشير والتواقيع، كتب السر بمصر ودمشق، وله مؤلفات كثيرة منها: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وفواضل السمر في فضائل عمر، والتعريف بالمصطلح الشريف، والدعوة المستجابة، وسفرة السفرة،

1- انظر طبقات الشافعية، ٣/١٤- ١٦، شذرات الذهب، ٨/٢٧٢- ٢٧٣.

2- انظر أعيان العصر، ١/٣٨٨- ٢٨٩، الدرر الكامنة، ١/١٨٥- ١٨٦، السلوك، ج٢ق٣/٧٩١.

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
	وديوان الصبابة وهو شعر في المديح النبوي وغيرها[1].
برهان الدين بن إبراهيم بن عبدالله بن علي ابن يحيى الحكري	ولد سنة نيف وسبعين وستمائه للهجرة، وكان محدثاً ومقرئاً القرآن ونحوياً ومدرّساً[2]
برهان الدين إبراهيم بن لاجين بن عبد الله الرشيدي المصري الشافعي	ولد سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، كان فقيها، وعالما في القراءات والتفسير والحديث والنحو والمنطق، وكان يعرف الطب والحساب، تولى القضاء في المدينة المنورة، توفي في القاهرة[3].
تاج الدين بن فخر الدين المصري الشافعي	ولد سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، كان عالماً بأصول الفقه، حفظ كتبا منها، مثل المنهاج لمحيي الدين النووي، ومنهاج البيضاوي في الأصول، ودرّس في غير مدرسة في دمشق منها: المدرسة العادلية والرواحية والدّولَعية، توفي في طاعون دمشق[4].
تقي الدين محمد المعروف بابن البيائي	كان من فقهاء مصر البارعين، ويشتغل بجامع عمرو بن العاص، توفي في طاعون مصر[5].

1 - انظر أعيان العصر، ١/٤١٩- ٤٢٠، ألحان السواجع، ١/١٤٦، طبقات الشافعية، ٣/١٦- ١٨، شذرات الذهب، ٨/٢٧٣- ٢٧٤.

2- انظر السلوك، ج٢ق٣/٧٩١، شذرات الذهب، ٨/٢٧١.

3- انظر شذرات الذهب، ٨/٢٧١.

4- انظر أعيان العصر، ٣/٤٠، الدرر الكامنة، ٢/٢٠٩.

5- انظر طبقات الشافعية، ٣/٧٠- ٧١، الدرر الكامنة، ٤/٣١٨، شذرات الذهب، ٨/٢٨٠.

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
سعيد بن عبد الله الدِّهِلي البغدادي أبو الخير نجم الدين	درس الحديث في دمشق ومصر والإسكندرية ، وله رحلة، " وجمع التراجم لكثير من أعيان دمشق وبغداد "[1].
سليمان بن عبد الحليم بن عبد الحكيم صدر الدين الباردي	ولد سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وهو شيخ وإمام وعالم، كان فقيهاً مالكياً ومفتياً، أشعري العقيدة، درّس في المدرسة الشرابيشيّة التي بناها نور الدين علي الشرابيشي، داخل باب الجابية بدمشق، توفي في طاعون دمشق[2].
شهاب الدين المعروف بالحاجبي	كان جندياً من الجنود، وشاعراً جيداً " يتخيّل المعنى الغامض، ويورد اللفظ الحلو الحامض، مقاطيعه رائقة، ومعانيه بالقلوب لائقة "[3].
طيبرس بن عبد الله علاء الدين الحنفي المعروف بالجندي	ولد سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م تقريباً، وكان شيخا إماماً، وعالماً فقيهاً حنفياً، "واشتغل بالنحو واللغة والعروض والأدب والفرائض والأصلين"، وصنّف في

1- الدرر الكامنة، ٨١/٢ .

2- انظر أعيان العصر، ٤٤٣/٢- ٤٤٤ .

3- المصدر نفسه، ٣٦٦/١- ٣٦٩ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
	النحو، "ونظم كتاب الطرفة في النحو، وجمع بين ألفية ابن مالك ومقدمة ابن الحاجب وزاد عليهما"، توفي في طاعون دمشق[1].
عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن المزي الحلبي الأصلي	ولد سنة ٦٨٧هـ/١٢٧٩م، وسمع الحديث " وحدّث بمصر والشام "[2].
عبد القادر بن بركات ابن أبي الفضل الشيخ محيي الدين الصوفي المعروف بابن قريشة البعلي	ولد سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، سمع الحديث ، وكان أحد المشهورين بالتصوف وطرقه ، توفي في طاعون دمشق[3].
عبد الله محمد بن سليمان المنوفي المغربي المالكي	ولد سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م في قرية سابور بمصر، كان له مشاركة في العلوم، وهو من كبار الأولياء، وله كرامات، اشتغل بالعربية والأصول والفقه، كان تقيّاً، بعد وفاته أضحى قبره مزاراً للأولياء[4].
علاء الدين أبو الحسن القونوي الحنفي الصوفي	علاّمة بارع، كان عالماً في الحديث، وكان مترجماً الكتب التي ترد بالعجمية إلى ديوان الإنشاء في دمشق، درّس في المدرسة القليجية فيها، وتخرج على يديه عدد من

1- أعيان العصر، ٦٢٥/٢- ٦٢٦، شذرات الذهب، ٢٧٥/٨

2- الدرر الكامنة، ٢١٣/٢ .

3- انظر أعيان العصر، ١٢١/٣، الدرر ، ٢٣٦/٢ .

4- انظر الدرر الكامنة، ١٨٩/٢- ١٩٠، بدائع الزهور، ج١ق١/٥٢٨ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
	العلماء، تولى في دمشق مشيخة شيوخ المالكية، توفي في طاعون دمشق[1].
علي بن محمد علاء الدين أبو الحسن الشافعي المعروف بابن الرّسام	كان شيخا إماما، كاتباً، جميل الخط، تولى وكالة بيت المال في صفد، سمع الحديث بمصر والشام، وشارك في أصول العربية والفقه، درّس في الجامع الظاهريّ في صفد، وتوفي في طاعونها[2].
علي بن محمد بن نبهان	أحد شيوخ عصره المشهورين في البلاد الحلبية، توفي في طاعون حلب[3].
عمر بن آقوش زين الدين أبو حفص الشّبلي الدمشقي الذهبي الشافعي المعروف بابن الحسام الافتخاري	ولد سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، كان شاعراً، له كثير من الشعر، وسمع الحديث، وكان يلقب براطيش أو شراشط، توفي في طاعون دمشق[4].
عمر بن سعد بن عبد الأحد الحراني زين الدين أبو حفص	ولد سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، سمع الحديث، وبرع في الفقه والفرائض والعربية، ولي نيابة الحكم[5].

1- انظر أعيان العصر، ٣/٥٤٢- ٥٤٣ .
2- انظر المصدر نفسه، ٣/٥٢٠ .
3- انظر المصدر نفسه، ٣/٥١٧ .
4- انظر المصدر نفسه، ٣/٥٩٨
5- انظر ابن رافع السلامي، تقي الدين أبو المعالي محمد(ت ٧٧٤هـ١٣٧٢م)، الوفيات، حقّقه وعلّق عليه: صالح مهدي عباس، أشرف عليه وراجعه: بشار عواد معروف، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، ٢/٨٦، الدرر الكامنة، ٣/١٦٦، النجوم الزاهرة، ١٠/٢٤٠، شذرات الذهب، ٨/٢٧٧ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
عمر بن علي بن موسى بن الخليل البغدادي الأزجي سراج الدين أبو حفص	ولد سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، تقريبا، كان فقيها حنبليا ومُحدّثاً، صنف في علوم الحديث وفنونه توفي بالطاعون في أرض الحجاز وهو في طريقه إلى الحج[١].
عمر بن محمد بن عبد الحاكم بن عبد الرزاق زين الدين أبو حفص البُلفياني	ولد قريباً من سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، كان شيخاً إماماً علامة، درس الفقه والحديث حتى بلغ شأواً عظيماً فيهما، تولى قضاء حلب، وقضاء المنوفية، وقضاء صفد، ودرّس في المدرسة النورية بحمص، توفي في طاعون صفد[٢]
عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، زين الدين أبو حفص بن الوردي المعري	سبقت ترجمته
محمد بن إبراهيم بن ساعد شمس الدين أبو عبد الله الأنصاري السنجاري الأصل والمولد المعروف بابن الأكفاني	كان عالماً فريداً نحريراً، برع في علوم الحكمة والهندسة والحساب والهيئة والطب، وتوسع في الأدب وفنونه، فكان يحفظ شعراً كثيرا، ويعرف في العروض والبديع، "وله اليد الطولى في الروحانيات والطلاسم وإخراج الخبايا

1- انظر الدرر الكامنة، ١٨٠/٣، شذرات الذهب، ٢٧٨/٨ .

2- انظر أعيان العصر، ٦٥٧/٣، طبقات الشافعية، ٤٣/٣- ٤٤ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
	"، "ومعرفة جيدة بأصول الخط المنسوب"، توفي في طاعون القاهرة[1].
محمد بن أحمد بن عبد الله بدر الدين بن الحَبّال الحنبلي	كان شيخا إماماً مفتياً، فقيهاً فاضلاً، توفي في طاعون مصر[2].
محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الإسعردي أبو عبد الله شمس الدين المعروف بابن اللَّبان الدِّمشقيّ	ولد في حدود سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، كان شيخاً إماماً، سمع الحديث ورواه، وتفقه، وبرع في العربية، وكان أديباً شاعراً، "ودرّس بزاوية الشافعي في جامع عمرو ابن العاص، وعقد مجالس الوعظ"، له مؤلفات منها: ترتيب الأم للشافعي، واختصر الروضة، وجمع كتاباً في الحديث وعلومه، وكتب كتاباً في النحو، وتفسيراً لم يكمله، وله كتاب متشابه القرآن والحديث. توفي في طاعون القاهرة[3].
محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان بن محمود بن	ولد سنة نيف وستين وستمائة للهجرة، كان شيخا عالماً علاّمة،

1- انظر أعيان العصر، ٢٢٥/٤ وما بعدها، الوافي بالوفيات، ٢٥/٢، ألحان السواجع، ٤٦/٣، الدرر الكامنة، ٢٧٩/٣ ، الشوكاني ، محمد ابن علي(ت ١٢٥٠هـ- ١٨٣٤م)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ويليه الملحق التابع للبدر الطال، وضع حواشيه : خليل منصور ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، ٧٩/٢ .

2- انظر أعيان العصر، ٣٠١/٤، الوافي بالوفيات، ١٧٠/٢ ، الدررالكامنة، ٣٢٩/٣ .

3- انظر اعيان العصر، ٢٩٩/٤ وما بعدها، الوافي بالوفيات، ١٦٨/٢، الوفيات، ٢٧٨/١، طبقات الشافعية، ٣/ ٥٢- ٥٤، الدرر الكامنة، ٣٣٠/٣، شذرات الذهب، ٢٧٩/٨، ذيول العبر، ٢٧١/٦ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
لاحق بن داود، شمس الدين أبو عبدالله الكناني المصري الشافعي المعروف بابن عَدلان	تفقه وسمع الحديث، وقرأ في الأصول، ولي قضاء العسكر، ووكالة بيت المال، ودرّس في غير مدرسة، وكان عارفا بالنحو والفقه والقراءات، توفي في طاعون القاهرة[1].
محمد بن إسحاق بن محمد بن المُرتّضى البلبيسي عماد الدين المصري الشافعي	كان عالماً بالفقه والحديث، من حفّاظ المذهب الشافعي، ولي قضاء القاهرة، توفي في طاعون القاهرة[2].
محمد بن أبي بكر بن عيسى تقي الدين الأخنائي	قاضي القضاة المالكية في مصر كان فقيهاً ، معظماً عند رجال الحكم فيها . توفي في طاعون مصر[3].
محمد بن عبد الله بن محمد بن لب بن الصايغ محب الدين أبو عبد الله المغربي المعروف بابن الصايغ الأموي المروي	من علماء النحو في القاهرة، كان بارعا في ضرب العود " وماهراً في العربية واللغة قيّماً في العروض، ينظم نظماً وسطا "، توفي في طاعون مصر[4]،

1- انظر أعيان العصر، ٢٩٧/٤ وما بعده، الوافي بالوفيات، ١٦٨/٢، طبقات الشافعية، ٥٤/٣-٥٥، ذيول العبر، ٢٧٠/٦، الدرر الكامنة، ٣٣٣/٣، شذرات الذهب، ٢٧٩/٨ .

2- انظر الدرر الكامنة، ٣٨٢/٣، السيوطي جلال الدين عبد الرحمن(ت ٩١١هـ- ١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مصطفى فهمي الكتبي، القاهرة، مصر، ١٣٢١هـ-١٩٠٣م، ٤٢٨/١، شذرات الذهب، ٢٨٠/٨

3- انظر أعيان العصر، ٣٢٦/٤ وما بعدها، الوافي بالوفيات، ٢٧٢/٢، الوفيات، ٢٨٨/١، الدرر الكامنة، ٤٠٧/٣ .

4- انظر أعيان العصر، ٥٣٩/٤- ٥٤١، ألحان السواجع، ٨٨/٣، الدرر الكامنة، ٢٩٥/٣، شذرات الذهب، ٢٨١/٨ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
محمد بن علي أمين الدين المهتار الصفدي المعروف بدرويش	ولد سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م تقريباً في القاهرة، كان كاتباً مجوِّداً، كتب الخط المنسوب، ونظم الشعر، وتنقّل بين القاهرة وبغداد وصفد واليمن ودمشق، توفي في طاعون القاهرة[١].
محمد بن علي بن يوسف بن محمد السكري ابن اللؤلؤة	عني برواية الحديث، وولي الإمامة والخطابة[٢].
محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير ناصر الدين	ولد سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م، طبيب مصري وحكيم، من الأدباء الظرفاء، توفي في طاعون مصر[٣].
محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر ناصر الدين بن الصائغ الدمشقي	إمام ومفت ومدرس ومحدث، درّس في المدرسة العمادية بدمشق، توفي في طاعونها[٤].
محمد بن محمد بن مينا بن عثمان بن البعلبكي الشافعي	سمع ببغداد، وتفقه وأفتى، ودرّس، وخطب بالمزة بدمشق، جمع كتاباً أسماه " فكاهة الخاطر ونزهة الناظر "[٥].

1- انظر أعيان العصر، ٦٦٢/٤- ٦٦٤، ألحان السواجع، ١٢٨/٣ .
2- الدرر الكامنة، ٦٢/٣ .
3- انظر اعيان العصر، ١٨٠/٥- ١٨٣، الدرر، ١١٨/٤ .
4- انظر اعيان العصر، ٢٤٦/٥- ٢٤٧، الوافي، ٢٢٨/١ .
5- انظر الدرر، ١٤٧/٤ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
محمد بن يونس بن فتيان أبو زرعة المناني المقدسي الشافعي	ولد في حدود ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، كان فاضلاً ذكياً، حفظ كتباً كثيرة، وسمع الحديث من كثير من علماء عصره، ونسخ ومهر في ذلك[١].
محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن علي الشافعي شمس الدين الأصبهاني	ولد سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، كان فقيها شافعياً، عالما بالعقليات والتفسير والنحو، درّس بالجامع الأموي بدمشق، ومات في طاعونها، وله مؤلفات، منها: تفسير للقرآن الكريم، وشرح كافية ابن الحاجب، وشرح مختصر الأصلي، وشرح منهاج البيضاوي، وشرح بديعية ابن الساعاتي، وشرح الساوية في العروض[٢].
يوسف بن سليمان بن أبي الحسن بن إبراهيم النابلسي جمال الدين الخطيب	ولد بنابلس سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م، اشتغل بالفقه، كان خطيبا، كتب في ديوان الإنشاء، ونظم الشعر[٣].
يوسف بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس جمال الدين	إمام وفقيه وعالم، " قرأ التنبيه، واشتغل بالحاوى الصغير" ،

1- انظر أعيان العصر، ٣٦٤/٥، الدرر الكامنة، ١٩٣/٤ . .

2- انظر أعيان العصر، ٤٠٠/٥- ٤٠٥ ، طبقات الشافعية، ٩٤/٣، شذرات الذهب، ٢٨١/٨ .

3- الدرر، ٢٨٠/٤- ٢٨١ .

اسم العالم أو الأديب	نبذة عن حياته
المعري ابن الوردي، أخو الأديب القاضي زين الدين عمر بن الوردي	" تنقل في القضاء بالبلاد الحلبية "، توفي في طاعون حلب[1].

* * *

1- انظر أعيان العصر، ٥/٦٦٩، ذيول العبر، ٦/٢٧٢، الدرر الكامنة، ٤/٤٧٨ .

خاتـمة

بعد هذا الحديث عن طاعون ٧٤٩هـ/١٣٤٨م وأثره في جوانب الحياة المختلفة في العهد المملوكيّ الأول ، يمكن استخلاص النتائج الآتية :

- كان هذا الطاعون عاماً شمل أغلب المناطق المعروفة في العالم يومذاك في آسيا وأوروبا وإفريقيا إلا بعض المناطق استثناها المؤرخون .
- تبيّن من البحث أن المرض كان عنيفاً جداً، وترك آثاراً كثيرة في الأماكن التي أصابها أثّرت في جوانب حياتها المختلفة : الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية ، وتوّزعت هذه النتائج بين سلبية وإيجابية ، ولكن في معظمها جاءت مدمّرة أسباب الحياة فيها ، وقد أكثر المؤرخون من العبارات الدالة على شدة المرض وعنفه.
- أطلق على هذا المرض أسماء متعددة جاءت من واقعه وما تركه من آثار ، مثل الطاعون العام ، والفناء الكبير ، والفناء العظيم ، والفصل الكبير ، وسنة الفناء ، والطاعون الأعظم ، وطاعون الأنساب.
- تحدّثت كتب المؤرخين عن أسباب انتشار المرض وأعراضه ، أما أسبابه ، فتمثلت في العدوى ، وانتشار جثث الموتى وتعفنها لعدم القدرة على دفنها لكثرتها أو الإحاطة بها ، ولتوزعها في أماكن كثيرة ، وجعله بعضهم عقاباً من الله تعالى على ما اقترفه عباده من خطايا وآثام.

أمّا أعراضه ، فتجلّت بنفث الدمّ والصداع القوي وظهور أورام تحت الإبط أطلقوا عليها الكبة والخيارة واللوزة ، أو ظهور بثور سوداء في أجزاء جسم الإنسان التي انتقلت إليها العدوى من البراغيث ، وتحوّل لحم الحيوان

إلى هذا اللّون، وكل ذلك كان يرافقه غثيان وحرارة شديدة، لم تمهل المصاب سوى سويعات قليلة فيموت ثم يتبعه أهل بيته في كثير من الحالات.

- قاوم الناس المرض بطرق متعددة، بعضها طبية وأخرى شعبية، فقد لجؤوا إلى قتل الكلاب التي تجلب العدوى في بعض المناطق، وأشعلوا النيران لتنقية الهواء، وتجنبوا الطبخ في الأسواق، وأكلوا العدس واللحم بعد الطهي ممزوجاً بالخل، وتناولوا البصل وسمك الفسيخ، وقلّلوا من الفاكهة والمرق، وبخّروا بيوتهم بأنواع مختلفة من البخور، وجأروا إلى الله بالدعاء.
- تنوّعت الآثار الاجتماعية للمرض، وتنوّعت مابين سلبية وإيجابية. أمّا السلبية، فتمثلت في كثرة الفناء والموت حتى خلت بعض البلاد من قاطنيها، وقد أشار المؤخون إلى أعداد من ماتوا، وأقرّ بعضهم بصعوبة الإحاطة بهذه الأعداد، وكان صعباً على الناس دفن موتاهم لكثرتهم، وتتابع الموت فيهم، حتى إنّهم لم يجدوا ما يحملونهم عليه، فحملوا غير واحد في النعش أو على الأبواب وألواح الخشب والسلالم، ودفنوا موتاهم في قبور جماعية في بعض المناطق، وربّما رموهم في البحر، وعجزت المساجد عن استيعاب هذا العدد الكبير من الناس، فكان يصلّى عليهم خارجه.

وانعدم الورثة لموت جميع العائلة أو الأسرة، وربّما انتقل الميراث في اليوم الواحد لغير شخص، وكثر بكاء الناس وهلعهم، وعلت الكآبة وجوههم.

وتعطّلت الشعائر الدينية في كثير من المساجد لانشغال الناس بمصابهم ودفن موتاهم. وكثر استغلال بعض الناس للوضع العام، فراحوا يرفعون أجور التغسيل والتكفين والدفن حتى ترك بعضهم عماه الرئيس واشتغل بهذه المهن طلباً للكسب.

أمّا آثاره الإيجابية، فتجلّت في التكافل الاجتماعي، فكان الناس يتعاونون على هذا المصاب في جمع الموتى وتغسيلهم وتكفينهم ودفنهم، وتجلّت الوحدة المجتمعية في أبهى صورها إذ كانت الطوائف كلها تجتمع في المساجد للصلاة والدعاء إلى الله ليخفف عنهم ما نكبوا به. وزهد الكثيرون في الدنيا وعادوا إلى الله، فتابوا، ووزعوا أموالهم على الفقراء، وتخلوا عن ترفهم وأبهتهم

- كانت أثار المرض الاقتصادية عنيفة تركت بظلالها على الوضع الاقتصادي، وتمثل ذلك في الغلاء وارتفاع الأسعار الناتج عن موت الفلاحين، وترك المحاصيل في أرضها دون جني، ولكثرة من ماتوا من التجار والحيوانات التي كان يعتمد عليها في التنقل والزراعة والطعام. وكسدت الأسواق، وبخاصة البضائع التي لا يحتاجها الناس في طعامهم وشرابهم مثل الذهب والملابس، فرخصت أسعارها، وأغلقت بعض الأسواق، وترك كثير الصناع وأرباب الحرف وظائفهم، واستغلوا فرصة المرض للحصول على ربح مادي وفير من وتغسيل الموتى وتكفينهم ودفنهم.
- تبيّن من البحث أثر المرض في الحياة السياسية يومذاك، فقد كانت الدولة تلجأ إلى طرق متعددة للوقاية من المرض، مثل قتل الكلاب أو منع الطبخ في الأسواق، ودعوة الناس إلى الخروج إلى المساجد للدعاء، وإجبار أرباب المهن والصنائع على العودة إلى وظائفهم. وشارك بعض الولاة والأمراء الناس مصابهم فغسلوا الموتى وكفّنوهم ودفنوهم، في حين سطا بعضهم على أموال الناس ونهبوها، وعطّلت بعض المراسم العسكرية، وتفشى المرض في الجند والأمراء والملوك، فمات عدد كبير منهم.

- وكان للمرض آثار مهمة في الحياة الثقافية، ومنها الإيجابية التي برزت في نشاط حركة التأليف الخاصة بهذا المرض وغيره، وفي النصوص الأدبية الشعرية والنثرية التي قيلت فيه، وفي مشاركة العلماء والفقهاء في رجوع الناس إلى الله والقنوت إليه ودعائه. أمّا الجوانب الثقافية السلبية ، فكانت في كثرة من مات من العلماء والأدباء بهذا المرض، وجلّهم ممن كان لهم باع طويل في الحركة العلمية والأدبية في زمانهم، وفي ضياع الكثير من الكتب جراء النهب أو البيع يومذاك.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

أوّلاً: المصادر

- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ط١، دار الباز، مكة المكرمة، السعودية، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- ابن أيدمر العلائي، صارم الدين إبراهيم بن محمد، النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، علّق عليه: محمد السعيد محمد الزيني، المكتبة الوقفية، القاهرة، مصر.
- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، ط١، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الجزء الثاني، حقّقه ووضع حواشيه: محمد محمد أمين، تقديم: سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الجزء الثالث، حققه ووضع حواشيه: نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، الجزء الحادي عشر، حققه ووضع حواشيه: محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب الوثائقية، القاهرة، مصر، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهر، قدّم له وعلّق عليه : محمد حسين شمس الدين، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

- ابن حبيب، بدر الدين حسن بن عمر بن الحسن، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، تقديم: سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٦م.
- ابن حجة الحموي، تقي الدين بن محمد، بلوغ الأمل في فن الزجل، تحقيق: رضا محسن القرشي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، ١٩٧٤م.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي:
- إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ط٢ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق: أبي إبراهيم كيلاني، و محمد خليفة، دار الكتب الأثرية، الزرقاء، الأردن، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، طبعه وصححه: عبد الوارث محمد علي، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومي البغدادي، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

- الحسيني، محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسين الدمشقي، من ذيول العبر للذهبي والحسيني، تحقيق: محمد رشاد عبد المطّلب، راجعه: صلاح الدين المنجد، وعبد الستار فرّاج، ط١، مطبعة الكويت، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- ابن رافع السلامي، تقي الدين أبو المعالي محمد، الوفيات، حقّقه وعلّق عليه: صالح مهدي عباس، أشرف عليه وراجعه: بشار عواد معروف، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، معيد النعم ومبيد النقم، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر
  - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مصطفى فهمي الكتبي، القاهرة، مصر، ١٣٢١هـ- ١٩٠٣م.
  - ما رواه الواعون في خبر الطّاعون، مخطوط منشور على موقع شبكة الألوكة.
- ابن شاهين الظاهري، زين الدين عبد الباسط بن خليل الحنفي، نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.
- ابن الشحنة، محب الين أبو الوليد محمد بن محمد، روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق: سيد محمد فهمي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

- الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ويليه الملحق التابع للبدر الطالع، وضع حواشيه: خليل منصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك:
- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرين، قدّم له: مازن عبد القادر المبارك، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، سوريا، دمشق، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
- ألحان السواجع بين البادي والمراجع، تحقيق: محمد عايش، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، حقّقه وقدّم له: أيمن فؤاد السيّد، ط١، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن محمد الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٣١هـ- ١٩٩٢م.
- ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد أبو بكر الدمشقي، طبقات الشافعية، علّق عليه: الحافظ عبد العليم خان، رتّب فهارسه: عبد الله أنيس الطبّاع، ط١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

- القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل محمد، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله ابن عبد المحسن التركي، دار هجر.
- المقريزي، تقي الدين بن أحمد بن علي:
- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صحّحه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر، ١٩٧٠م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، مصر، ١٢٧٠هـ.
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن عمر بن محمد المعري الحلبي:
- تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، ط١، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٢٩هـ- ١٩٧٠م.
- الديوان، حقّقه وعلّق عليه وجمع ملحقه: أحمد فوزي الهيب، ط١، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

ثانياً: المراجع

- أشرف صالح محمد سيّد، إدارة الكوارث البيولوجية في بلاد الشام في عصر الدولة المملوكيّة الطاعون نموذجا (٦٤٨- ٩٢٢هـ)، مجلة جيل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، مركز جيل البحث العلمي، الجزائر، ع٦، إبريل ٢٠١٥م، صفحات ٩- ٢٣.

- علي السيد محمود، الفناء الكبير والموت الأسود في القرن الرابع عشر الميلادي دراسة مقارنة بين الشرق والغرب، المجلة التاريخية المصرية، مصر، مج ٣٣، ١٩٨٦م، صفحات ١٤٩- ١٨٧.
- فتحي سالم حميدي، وباء الطاعون وأثره على مدينة القاهرة في العصر المملوكيّ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسيّة، م١٢، ع٤، ٢٠١٣م، صفحات ٤٥٥- ٤٧٦.
- قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٧٩م.
- محمد حمزة محمد صلاح، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر ٤٩١- ٩٢٣هـ/١٠٩٧- ١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- مصطفى إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، إسطنبول، تركيا.
- منير الذيب، معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية (سورية، الأردن)، دراسات لغوية تاريخية إحصائية جغرافية، دار العرّاب، دار نور، دمشق، سوريا، ٢٠١٠م.
- يوسف درويش غوانمة، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكيّ، مجلة دراسات تاريخية، سوريا، ع١٤، ١٩٨٣م، صفحات٧٤- ٨٧.

* * *

- Sayyid, `A. (1986). Al-finā- al-kabīr wa al-mawt al-aswad fī al-qarn al-rābi` `ashar al-mīlādī: Dirāsa muqārina bayn al-sharq wa al-gharb. *Al-Majalla Al-Tārīkhiyya Al-Masriyya, 33*, 149-187.
- Sayyid, A. (2015). Idārat al-kawārith al-bayūlūjiyya fī bilād al-shām fī `asr al-dawla al-mamlūkiyya: Al-tā`ūn namūthajan. *Majallat Jīl Al-`Ulūm Al-Insāniyya Wa Al-Ijtimā`iyya,* (6), 9-23.

* * *

- Ibn-Qādhī, Sh. (1987). *Tabaqāt al-shāfi`iyya* (1st ed.). Beirut: `Aālam Al-Kutub.
- Ibn-Rāfi`, T. (1982). *Al-wafiyyāt* (1st ed.). S. `Abbās (Ed.). Beirut: Muassasat Al-Risāla.
- Ibn-Shāhīn, Z. (2002). *Nayl al-amal fī al-thayl al-duwal* (1st ed.). U. Tudmurī (Ed.). Beirut: Al-Maktaba Al-`Asriyya.
- Ibn-Taghrī, J. (1984). *Al-manhal al-Sāfī wa al-mustawfā ba`d al-Sāfī: Al-juz- al-awal*. M. Amīn (Ed.). Cairo: General Egyptian Book Organization.
- Ibn-Taghrī, J. (1985). *Al-manhal al-Sāfī wa al-mustawfā ba`d al-Sāfī: Al-juz- al-thānī.* N. Abdul`azīz (Ed.). Cairo: General Egyptian Book Organization.
- Ibn-Taghrī, J. (1992). *Al-nujūm al-zāira fī nulūk Misr wa al-Qāhira* (1st ed.). H. Shams-Aldīn (Ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-`Ilmiyya.
- Ibn-Taghrī, J. (2005). *Al-manhal al-Sāfī wa al-mustawfā ba`d al-Sāfī: Al-juz- al-hādī `ashar.* M. Amīn (Ed.). Cairo: Dār Al-Kutub Al-Wathāiqiyya.
- Ibrāhīm, M. et al. (n.d.). *Al-mu`jam al-waSīt.* Istanbul, Turkey: Dār Al-Da`wa.
- Qāsim, Q. (1979). *Dirāsāt fī tārīkh Misr al-ijtimā`ī: `Asr salātīn al-mamālīk.* Cairo: Dār Al-Ma`ārif.
- Salāh, M. (2009). *Al-kawārith al-Tabī`iyya fī bilād al-shām wa Misr 1097-1517* (Unpublished master's thesis). Islamic University, Gaza.

- Ibn-Alwardī, U. (1970). *Tatimmat al-mukhtaSar fī akhbīr al-bashar* (1st ed.). A. Al-Badrāwī (Ed.). Beirut: Dār Al-Ma`rifa.
- Ibn-Alwardī, U. (1986). *Al-dīwān* (1st ed.). A. Al-Hayb (Ed.). (n.p.): Dār Al-Qalam Lil-Nashr Wa Al-Tawzī`.
- Ibn-Battūta, M. (n.d.). *Rihlat ibn-BaTūTa al-musammāh tuhfat al-anzhār fī gharā-ib al-amsār wa `ajā-ib al-asfār*. Cairo: Al-Maktaba Al-Waqfiyya.
- Ibn-Habīb, B. (1986). *Tathkirat al-nabīh fī ayām al-mansūr wa banīh* (2nd ed.). M. Amīn (Ed.). Cairo: General Egyptian Book Organization.
- Ibn-Hajar, Sh. (1983). *Bathl al-mā'ūn fī fadhl al-tā`ūn*. A. Kīlānī & M. Khalīfa (Eds.). Al-Zarqa, Jordan: Dār Al-Kutub Al-Athariyya.
- Ibn-Hajar, Sh. (1986). *Inbā- al-ghumr bi-abnā- al-`umr fī al-tārīkh* (2nd ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-`Ilmiyya.
- Ibn-Hajar, Sh. (1990). *Mu`jam al-buldān* (1st ed.). F. Al-Jundī (Ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-`Ilmiyya.
- Ibn-Hajar, Sh. (1997). *Al-durar al-kāmina fī a`yān al-mā-a al-thāmina* (1st ed.). A. Alī (Ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-`Ilmiyya.
- Ibn-Hujja, T. (1974). *Bulūgh al-amal fī fan al-zajal*. R. Al-Qurashī (Ed.). Damascus: Manshūrāt wizārat al-thaqāfa wa al-irshād al-qawmī.
- Ibn-Iyās, M. (1982). *Badā-i' al-zuhūr fī waqā-i` al-duhūr* (1st ed.). M. Mustafā (Ed.). Makkah Al-Mukarramah: Dār Al-Bāz.
- Ibn-Kathīr, I. (n.d.). *Al-bidāya wa al-nihāya*. A. Al-Turkī (Ed.). (n.p.): Dār Hajr.

- Al-Sibkī, T. et al. (1986). *Mu`īd al-ni`am wa mubīd al-niqam* (1st ed.). Beirut: Mu-assasat Al-Kutub Al-Thaqāfiyya.
- Al-SuyūTī, `A. (1631). *Mā warā- al-wā`ūn fī khabar Tā`ūn.* Turkey. Retrieved from http://www.alukah.net/library/0/52498/
- Al-SuyūTī, A. (1903). *Husn al-muhādhara fī akhbār Misr wa al-Qāhira.* M. Al-Kitbī. (Ed.). Cairo, Egypt.
- Al-Thīb, M. (2010). Mu`jam asmā- al-mudun wa al-qurā fī bilād al-shām al-janūbiyya (sūriyya wa al-urdun): Dirāsāt lughawiyya tārīkhiyya ihsā-iyya jughrāfiyya. Damascus, Syria: Dār Al-`Arrāb.
- Ghawānma, Y. (1983). Al-Tā`ūn wa al-jafāf wa atharuhumā `alā al-bī-a fī janūb al-shām (al-urdun wa filisTīn) fī al-`asr al-mamlūkī. *Majallat Dirāsāt Tārīkhiyya,* (14), 74-87.
- Hamīdī, F. (2013). Wabā- al-Tā`ūn wa atharuh `alā madīnat al-qāhira fī al-`asr al-mamlūkī. *Majallat Abhāth Kulliyyat Al-Tarbiya Al-Asāsiyya, 12*(4), 455-476.
- Ibn-`Abdalzhāhir, M. (1996). *Al-rawdha al-bahiyya al-zāhira fī khuTaT al-mu`ziya al-qāhira* (1st ed.). A. Al-Sayyid (Ed.). Cairo: Maktabat Al-Dār Al-`Arabiyya Lil-Kitāb.
- Ibn-Al`imād, Sh. (1992). *Shatharāt al-thahab fī akhbār min thanab* (1st ed.). A. Al-Arnā-ūt & M. Al-Arnā-ūt (Eds.). Damascus: Dār Ibn-Kathīr.
- Ibn-Alshahna, M. (1997). *Rawdh al-manāzhir fī `ilm al-awā-il wa al-awākhir* (1st ed.). S. Fahmī (Ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-`Ilmiyya.

Arabic References

- Al-'Alā-ī, I. (1999). *Al-nafha al-miskiyya fī al-dawla al-turkiyya* (1st ed.). U. Tudmurī. (Ed.). Beirut: Al-Maktaba Al-Asriyya.
- Al-Baghdādī, S. (1955). *Marāsid al-iTilā` 'alā asmā- al-amkina wa al-biqā`* (1st ed.). A. Al-Bajāwī (Ed.). Beirut: Dār Al-Ma`rifa.
- Al-Husainī, M. (1986). *Min thuyūl al-`ibar lil-thahabī wa al-husainī* (1st ed.). M. `Abdul-MuTalib (Ed.). Kuwait: MaTba`at Al-Kuwait.
- Al-Muqrīzī, T. (1853). *Al-mawā'izh wa al-i`tibār bi-thikr al-khuTaT wa al-āthār*. Egypt: MaTba`at Būlāq.
- Al-Muqrīzī, T. (1970). *Kitāb al-sulūk li-ma`rifat duwal al-mulūk*. M. Ziyāda (Ed.). Cairo: MaTba`at Lajnat Al-Ta-līf Wa Al-Tarjama.
- Al-Qalaqshandī, A. (1987). *Subh al-a`shā fī Sinā`at al-inshā* (1st ed.). M. Shams-Aldīn (Ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-`Ilmiyya.
- Al-Safadī, Kh. (2001). *Al-wāfī bil-wafiyyāt*. Beirut: Dār Ihyā- Al-Turāth Al-`Arabī.
- Al-Safadī, Kh. (2007). *Alhān al-sawāji` bayn al-bādī wa al-marāji`* (1st ed.). M. `Aāyish (Ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-`Ilmiyya.
- Al-Safadī, S. (1998). *A`yān al-`asr wa a`wān al-nasr* (1st ed.). A. Abū-Zayd et al. (Eds.). Damascus: Dār Al-Fikr.
- Al-Sakhāwī, Sh. (1995). *Wajīz al-kalām fī al-thayl `alā duwal al-islām* (1st ed.). B. Ma`rūf et al. (Eds.). Beirut: Mu-assasat Al-Risāla.
- Al-Shawkānī, M. (1998). *Al-badr al-Tāli` bi-mahāsin min ba`d al-qarn al-sābi` wa yalih al-mulhaq al-tābi' lil-badr al-Tāli'* (1st ed.). Beirut: Dār Al-Kutub Al-`Ilmiyya.

The 1348 AD/749 AH Plague in the First Mamluk's Era and its Impact on Different Aspects of Life

Dr. Ra`ed Abdulraheem
Department of Arabic Language Faculty Of Humanities
An-Najah National University - Nablus - Palestine.

Abstract:

The first Mamluk's era (648 AH - 784 AH / 1250 AD - 1382 AD) witnessed many natural disasters which varied between diseases, earthquakes, droughts, floods, etc. Their impact affected different aspects of life, some of which had a significant effect exceeding the others in that era, especially the plague of 1348 AD/749 AH which invaded the entire world, including the countries of the Arab Orient, Egypt and The Levant. Historians dealt with it extensively, and with the events associated with it and its impact on people's lives. However, a researcher' work in the first Mamluk era has never been thouroughly studied independently in an academic work. It was only discussed briefly in books and research dealing with natural disasters and diseases in the Mamluk era. Hence, the aim of this research is to resolve this shortcoming, and provide a comprehensive picture of the disease and its impact on different aspects of life.

The inductive analytical descriptive approach is used in this research work, in which the material, collected from the relevant academic resources, is described and analyzed in order to meet the objectives of the study and deal with its topics.